المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

388

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



فيلا أماليا

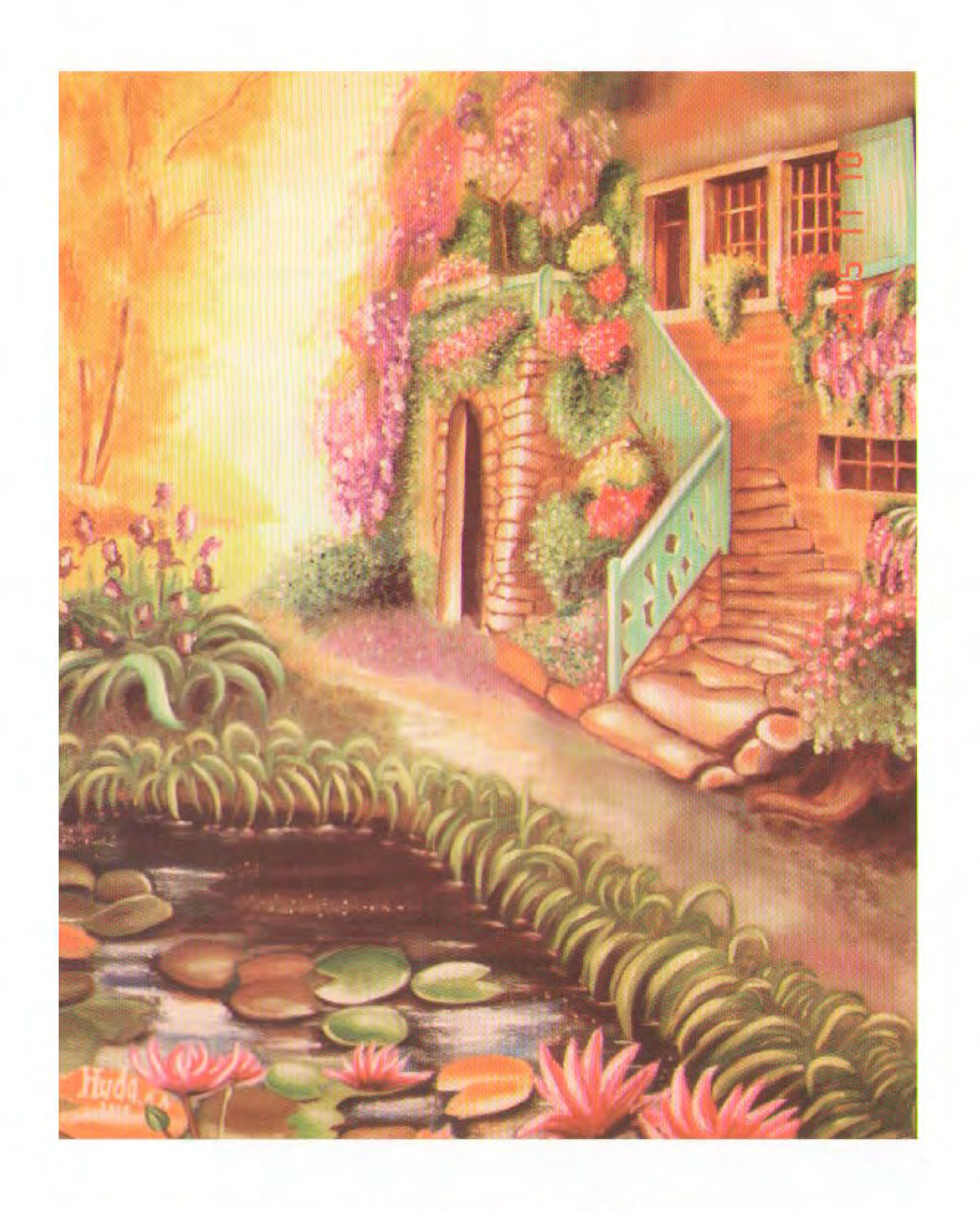
(رواية)

تأليف: باسكال كينيارد

ترجمة: محمد المزديوي

مراجعة: د. ليلى عثمان فضل

أبريل 2012



الفنانة: هدى العبدالهادي

الطبيعة

لوحة من معرض القرين الشامل

2006



فيلا أماليا

«رواية»

تـــألـــيـــف: باسكال كينيارد

تـــرجـــمـــة: محمد المزديوي

مـــراجـــعـــة: د. ليلى عثمان فضل

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
:E.Mail
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٧٥
ردمك: ٣-٣٥٨-٠-٩٩٩٠٦- ٩٧٨

• فيلا أماليا
(رواية)

العنوان الأصلي:

Villa Amalia

by: Pascal Quignard

Editions GALLIMARD, Paris, 2006

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2012م

إبداعات عالمية - العدد 388

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)



الفهرس

المقدمة

ليست رواية «فيلا أماليا» أول رواية ولا الرواية الوحيدة للروائي والمترجم الفرنسي باسكال كينيارد (ولد ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٨)، ولو شئنا أن نلخّص رواية فيلاّ أماليا لقلنا إنها قصّة سيدة موسيقية، آن هيدن، تقطن في الضاحية الباريسية، تقرّر، عند اكتشاف خيانة رفيقها، التخلي عن كل شيء أنجزته في حياتها، من منزل وصاحب وعمل، من أجل خلق حياة جديدة، تبتدئ من الصفر، وترتكز على عشقها للموسيقى، الصديق الوفي الذي لا يخون، في الجنوب الإيطالي تلتقي، في هذا الخضمّ، صديقا كأنه منبثق من الطفولة، ولكنها لا تبقى معه طويلا، تهرب منه (ولكنها تعود إليه كل مرة)، كما هربت من بيتها، في اتجاه جذورها وقدرها. وفي هذا البحث تعثر على جزيرة في إيطاليا، وهي المكان الذي توجد به فيلا أماليا.

في رواية فيلا أماليا يعود الكاتب إلى المواضيع والثيمات العزيزة على قلبه، وهي الموسيقى، أو الإبداع الفني، بشكل عام، من خلال الشخصية المركزية، وهي موسيقية، كما أنه يعود إلى مسقط رأسه منطقة بروتاني (معظم أعماله تستلهم بروتاني!)، التي تتميز بخصوصياتها الجغرافية واللغوية والثقافية والرمزية حيث تدور بعض أحداث الرواية.

ترسم الروايةُ الحياةَ المعاصرة، من خلال تشظّيها، ومن خلال المشاكل التي تحدث بين الأزواج وفي العلاقات السريعة التي تسم عصرنا، وتشكل طبيعته الغالبة. ومن المعلوم أن باسكال كينيارد عاد إلى الرواية، عقب توقف، بعد أن مرّ بمرحلة انفصال قاسية في حياته، رأينا انعكاسها الظاهر في الشخصية المركزية آن هيدن، التي تقرر الانفصال عن رفيق حياتها.

في الرواية عرضٌ رائع لشخوص/ بورتريهات جميلة، ولعلّ البورتريه الرائع، بكل ما يحمله من تفاصيل، جسدية ونفسية، عن

الشخصية المركزية، آن هيدن، وعن شخوص أخرى في الرواية أيضا، يكشف لنا بعضا من الطرق الكتابية عند باسكال كينيارد. ويكفي قراءة نصّه السردي الآخر، «الاسم في طرف اللسان»، حيث نتعرف على اثنين من شخوص الكتاب المركزية، «كولبرون» و «جون الخيّاط»، ليعرف المجهود الجبار الذي يبذله الكاتب، ومن خلاله السارد، في تقديم هذا النوع من الشخوص الروائية والسردية وفي الاعتناء بها ورسم أخطائها ومصائرها ولحظات ضعفها ووهنها.

تدشّن روايتنا عودة الكاتب إلى فن السرد، وإلى الفن الروائي، كما فعل مع رواياته السابقة، Les Escaliers de Chambord وTerrasse de Rome وTous les Matins du Monde، بعيدا عن الحاجة إلى التنظير وبعيدا عن الاستغراق في تمارين الشروحات والتفاسير العالمة التي نعثر عليها في كتاباته التي تتجه للنخبة عموما، والتي لا تجد قرّاء كثيرين، لعل من بينها نص "الاسم في طرف اللسان"، الذي قمنا بترجمته. وهنا نسجل أن رواية "فيلا أماليا" رواية جماهيرية، ولعل اقتباس فيلم منها، يحمل اسم الرواية نفسه، يدل على أن الكاتب يستطيع أن يكون نخبويا، إن شاء، وشعبيا، جماهيريا، إن أراد.

يعتبر باسكال كينيارد (وهو حاصل على جائزة الغونكور الفرنسية العريقة سنة ٢٠٠٢) من روائيي فرنسا الكبار الأحياء، إلى جانب باتريك موديانو (الغونكور ١٩٧٨) وجون- ماري غوستاف لوكليزيو، الحائز جائزة نوبل ٢٠٠٨، وإذا كان الروائيان الأخيران تعرفهما لغة الضاد، من قبل، فإن ترجمة كينيارد إلى اللغة العربية أصبحت أمرا ملحّا حتى يتعرف القارئ العربي على تجارب روائية غربية، وحتى تدخل الكتابة العربية في حوار خلاّق مع نظيراتها في مملكة الأدب الواسعة والمتشعبة.

باسكال كينيارد



الجزء الأول



الفصل الأول

«كانت لدي رغبة في البكاء. تبعتُه. كنت تعسة إلى درجة تُرغّبني في الموت. كنت أسير بمحاذاة السين لأكثر من نصف ساعة، عندما حل الليل فجأة. عندما وصل إلى شوازي لوروا، دخل توماس أحد الأزقة جهة اليمين، في الظلام. توقف لتوه تحت شجرة رند وأطفأ الأضواء. ركنت بسرعة، بطريقة سيئة، بعيدا شيئا ما، في الشارع. عدت أدراجي، أحاول السير بطريقة عادية، متفادية الهرولة. دفع بوابة حديدية. اقتربت. كنت أقترب بسرعة وبتمهل. لا أعرف كيف أعبر عن ذلك».

اقتربت.

لمست بجبينها قضبان الحديد الصدئ.

استعصت عليها الرؤية بوضوح عبر أوراق شجرة الرند في الليل.

ثم لمحت توماس : كانت امرأة شابة تمسك يديه تحت المصباح المضيء، أمام مدخل البيت.

حاول توماس نزع معطفه. وقفت المرأة الشابة على أطراف أصابعها. مدت شفتيها نحو شفتيه.

لكن أوراق شجرة الرند المنخفضة كانت تزعجها. تمنت أن لو استطاعت رؤية كل الوجه. كانا على وشك مغادرة مدخل البيت والولوج. لن تستطيع رؤية وجهها. فجأة سمعت في ظهرها :

– تراقبون هذا البيت بكثير من الاهتمام، سيدتي.

خفق قلبها بشدة. كانت مثل طفلة ضبطت تسرق.

- صحيح، أجابت.

ثم استدارت.

أمامها على رصيف الزقاق المظلم كان يقف رجل حليق، ببذلة غامقة، تفوح منه رائحة العطر. كان يبتسم دون أن يفعل شيئا.

قالت له :

- أظن أن أمامكم امرأة تحضر لعملية سطو.

أمسك كم معطفها الواقي.

ألَم تتعرفي علي؟

بهتت تماما لسؤاله. أشارت بالنفي. في الحقيقة لم تكن ترغب في التحدث ومع أي كان. سحبت كم معطفها من بين أصابعه.

قال لها :

- أنا، تعرفت عليك.

كان الليل قد حل. وكانت عيناها مُسمرتين على البوابة.

- أنتِ آن. بالتحديد، تلك التي كانت ترفض أن نناديها إليان.

عندها نظرت إليه آن هيدن. هزت رأسها. كانت مذهولة. اغرورقت عيناها بالدموع رغما عنها.

- صحيح، همست. كان ...

- ماذا تقولين؟

رفعت صوتها :

- صحيح. كان ذلك اسمي فيما مضى.

تقدمت نحوه، تتفحص وجهه، محاولة التعرف عليه.

- أنت، من أنت؟

- أنا جورج.

لم تعرف من يكون جورج.

- جورج روهل.

لم تعرف من يكون الرجل.

كان الليل يغطي جسديهما شيئا فشيئا ...

كان ينظر إليها وهو يبتسم.

أخرج محفظته من جيب سترته الداخلي.

مد بطاقة..

اضطــرت للاقتراب من المصباح الموجــود في الزقاق. قرأت اســمه الكامل، جورج روهلينجر. كانت الحروف مطبوعة بشكل بارز. كان يســكن أحد الأرصفة. فــي تيلي. هذا أيضا لم تعرف أين يكون، لم تعرف أي مرفأ يكون، لم تعرف في أي إقليم يوجد هــذا الرصيف وهذا المرفأ، على أي شــاطئ، فــي مواجهة أي محيط. بدأت تحس بنوع من الضيق.

- كنــا معا في المدرســة. في جميع الأقســام الصغرى، هل تتذكرين بروتاني؟ الأخت مارغريت ؟ نحن....

لم يتســن له إنهــاء جملته. ارتمــت بين ذراعيه وأجهشــت بالبكاء.

***

ضمها إليه.

ســاعدها على الســير في الظلام نحو منــزل صغير. كانت حديقته تطل على الشارع.

أغلق بوابة.

فتح بابا.

هل تعرف. أظن أني بدأت أشيخ. قالت آن هيدن. لا تؤاخذني يا جورج. لقد تطلب الأمر وقتا طويلا حتى أتعرف عليك.

- تغيرت أكثر منك، أجابها جورج بنعومة.

- لا، ليس ما قصدته. لا، لا، ربما تغيرتم قليلا.

أضاء مصباحا بالقرب منها وهما يدخلان الصالون.

أشعل المصابيح الصغيرة المحيطة به الواحد تلو الآخر.

جلست آن على أريكة من القصب أطلقت صريرا.

- بالطبع لم تتعرفي علي، كنت تتجسسين.

- جورج!

- نعم.

- لم أكن أتجسس. الرجل الذي أسكن معه اسمه توماس. كنت أتبعه. هو من دخل المنزل الذي فاجأتموني أمامه. فلنتحدث عن شيء آخر.

- إذا كنت تفضلين.

- أجل.

لم ترغب في قول شيء آخر عن الأمر الذي أتى بها إلى شوازي. أصبح وجهها كالصخر المنحوت.

- ربما ترغبين في بعض الشراب؟

- شاي.

ذهب ليحضر الشاي.

الصالون القديم كان مملوءا بالأثاث، أشياء متفاوتة القدم، الكثير من البشاعة.

اقتربت آن هيدن من النافذة. كانت الستائر المحيطة بها ممتلئة بالغبار. بدأت تمطر. كانت أغصان أشجار الخروب في الشارع تقطر ماء.

رجع جورج. وضع الصينية على الخوان. كان جذلا.

- أنا سعيد لأني وجدتك.

- أرغب في بعض قطع الخبز.

- قطع خبز، كيف؟

قطع خبز مثل العادة. قطع محمصة مع قليل من الزبد والمربى.

- لا أظن أني سأعثر على خبز حقيقي. في كل الأحوال عندي خبز محمص.

- زبد البروتون ما دمنا فيها.

- أي نوع من المربى؟

- مربى بالكرز. أو... أو مربى بقطع المشمش.

قال: لا أظن أن أمي كان لديها زبد مالح.

كان يهمهم وهو يغادر الغرفة.

- على أي، لن يكون طيبا...

وضعت رأسها بين يديها. تأوهت بدون تحفظ في الصالون، جالسة بين المكتب والستائر، بين الغبار والغبار، بينما كان يحمص الخبز.

عندما رجع، أشعل شمعة معطرة.

- الرائحة في بيت ماما غير زكية.

لم تصدر اعتراضا.

- أتتذكرين ماما.
- طبعـــا أتذكـــر والدتك. كانت امرأة ســـاحرة. كانت طباخة ماهرة.
- لقد... توفيت.
- آه!
كان متأثرا. لم يكن يبكي، لكن صوته ارتعش قليلا.
- نحن في بيتها.
- آه!
- توفيت منذ أحد عشر يوما بالتحديد.
لم تقل شيئا. نظرت إليه.
أضاف :
- لا تؤاخذيني. لم أستوعب الأمر بعد.
- نعم، همست.
- توفيت ليلة الميلاد...
بدأ صوته يرتعش وصمت.
لم تقل شيئا.
أخبرهـــا، بعد ذلك، أنه يقيـــم بالمنـــزل لبضـعة أيام من أجل إصلاح بعض الأشـــياء به. كان قـــد قرر بيع المنزل الذي أقامت به والدته وحدها بعد زواجها الثاني. لم يكن يرغب في الاهتمام به أطول من ذلك.
لـــم يكن يحب هذه المدينة. مصادفة عجيبة هذا اللقاء في شـــوازي لُورْوَا، إذا فكرنا في الأمر. تمضي أربعون سنة، يمر ملاك، تصعد روح إلى الســـماء، تنبعـــث امرأة على الرصيف

وتدخل وجهها في أوراق الرند، فجأة يتسلل طيف الأخت مارغريت في الفضاء.

ختمت:

- وطيفان يشربان الشاي معا.
- شاي ماما لذيذ، أليس كذلك؟
- جورج، تصور أن ما قلته صحيح: أنا امرأة تحولت شبحا.
- لم أعن هذا. ليس هذا ما أردت قوله.
- الشاي لذيذ. هل كانت والدتكم لا تزال تطبخ جيدا؟
- دائما. ماما كانت قد تزوجت ثانية. ثم ترملت مرة أخرى. لكنها ظلت تطبخ لنفسها.
- شيء جيد، شيء نادر.
- ألا تتخيلين ! هذا يمثل جانبا أحمق. من السادسة صباحا إلى التاسعة مساء. أمضت ماما حياتها تطبخ. لا يمكن أن تتصوري...
- هل يجب حقا أن نتخاطب بصيغة المفرد؟
- لماذا تقولين هذا؟
- لأن هذا الشيء يربكني، قالت آن هيدن.
- تخاطبنا دوما بدون تكليف.
- هذا يحرجني. ويربكني.
- لا يمكن أن نتخاطب بصيغة الجمع ! سيكون الأمر أكثر إرباكا. أنت لست جادة آن إليان. نحن نعرف بعضنا منذ زمن بعيد. انهضي قليلا.

مد لها يده، وصعدا إلى الطابق.

لم يتكلما.

دخلا غرفة والدة جورج. أحست آن هيدن أنها تتخطى الحياء. وسـط الغرفة يتربع سـرير بأربع كرات نحاسـية. كان اللحاف مطرزا. أحست أن جسد إفلين روهلينجر لا يزال مسجى هناك.

- اشتغلت ماما على اللحاف لست سنوات.

- أتصور. إنه جميل.

- إنه شديد البشاعة.

- هل تشتاق إلى طبيخ والدتك؟

- نعـم ولا. لا يمكـن أن تتصوري. كان الأمـر مزعجا. الآن أستطيع التخلص من بعض الوزن.

نظرت إلى منضدة مزينة بالأبنوس من بداية القرن العشرين.

لـم تعرف آن لماذا تتواجد في غرفة قديمة مملوءة بالغبار في عمق ضاحية جنوب باريس.

- هاهي الصورة التي كنت أبحث عنها.

- نعم...

في إطار كبير من الأكاجو، كانت تتداخل سـت صور أقسـام الطفولة.

وضعت آن مؤخرتها على طرف السـرير، على لحاف إيفلين روهلينجر.

في إحدى الصور القديمة كانت جالسـة على كرسي بجانب الأخت مارغريـت. كانت بضفيرتين، وتنتعل جـوارب كبيرة من الصوف تصل إلـى الركبة وهو كان واقفا في الصف الأعلى في قميص أسود مثلها، تغطي رأسه قبعة.

- هل ترين نفسك، هنا!
- شيء غريب. إنها قديمة...
اغرورقت عيناها بالدموع من جديد.
في تلك الفترة كان من حقنا تغطية الرأس في المدارس.
أبعدت إطار الأكاجو على اللحاف.
طلب منها جورج:
- هل يمكن أن ترافقيني للعشاء ؟ ثم تشرحي لي...
- ليس هذا المساء.
- لا، طبعا ليس هذا المساء. في يوم آخر. في الريف. على أي حال أنا لا أعيش هنا. أعيش في تيلي. في الإيون. على الإيون. يجب قبلا أن أعرض كل منزل ماما للبيع...
- تعرض كل ممتلكات والدتك للبيع ؟
- أجل.
- كل شيء؟
- نعم.
- ربما كنت على حق.
- لا يمكن أن تتصوري كم يؤلمني هذا في نفس الوقت. لكني أجد كثيرا من الأشياء. لا أعرف من أجل من كانت تحتفظ بكل هذه الأشياء... لا أعرف لماذا أراكم العديد من الأشياء أنا نفسي. مازلت تعيشين في بروتاني؟
- لا.
- ووالدتك ... لا تزال على قيد الحياة؟
- أجل.

استأنفت بصوت هامس:

- ماما لا تزال تعيش هناك.

- وهي ... ما زالت تنتظر؟

- نعم، دائما في المنزل نفسه. كل يوم. دوما. تنتظر دوما.

اقتربت من مصباح السرير. قالت:

- يجب أن أزورها الأحد، بعد أسبوع.

أطلقت آن تنهيدة، أضافت من أجل التبرير:

- إنه عيد الظهور.

انتصبت. أعادت الإطار إلى مكانه على الجدار. أعادت النظر إلى ضفيرتيها، وعينيهـا الكبيرتين الدائريتين والجادتين، أكمام الفانيلة التي تظهر من القميص.

قال:

- فلنهبـط، توجد عجائن طرية مـن الفواكه. أنا من أعدها. بدون مبالغة، أقسم لك إنها لذيذة...

هبطا الدرج.

سألته:

- أين توجد مدينتك؟

- على حدود البورغون Bourgogne. تجاور الإيون Yonne البورغون. بالتحديد بين سانسSens وجوانييJoigny . يجب أن تأتـي. توجد هناك مطاعم رائعة. شـيء فظيع أن يأكل المرء وحده. لا يمكن أن تتصوري.

- غيـر صحيح. أحببت دوما الأكل وحـدي، في الهدوء، في زاوية نافذة.

- أكره ذلك.

- أحب ذلك كثيرا.

- نأكل بسرعة.

- ليس أنا.

- نكون محط أنظار الجميع.

- صحيــح أننا نكون محط أنظار الجميع وأن الأمر ليس من أجمل مــا يكون، لكن أن آكل وحدي، فــي صمت، متعة حقيقية بالنسبة لي.

- لســت متفقا معك. الأمر ليس ممتعا بســبب الصمت. لا يمكــن أن نعبــر عما نحس به ونحــن نتذوق، ونــأكل، ونمضغ، ونشرب. أعاني كثيرا عندما آكل وحدي. تتعشين معي؟

كان متوســلا. لم تتحمل الوضع. وضعــت يدها على ذراعه. وقالت بحزم:

- ذات مساء، جورج.

عبرا الحديقة. بحث في جيب سترته عن محفظته.

- بطاقتي، رقم هاتفي...

- سبق لك أن أعطيتهما لي.

***

على الطريق الوطنية رقم ٦، توقفت بغتة.

كانت تفضل أن تتألم دون انتظار.

أو أنهــا كانت، بالأحرى، تفضل مواجهة الحزن الذي تحســه في مأمن من نظرات الآخرين.

استأجرت غرفة في أحد الفنادق.

فـــي ألفورتفيل. كانت النافذة تطل على مركز تجاري ومرآب. محطة الوقود كانت شــغالة. خرجت لشـــراء قنينـــة ماء وقطع شوكولاتة بالكارميل. أغلقت باب غرفتها، نزعت حذاءها، ذهبت نحو الســـرير، أبعدت الغطاء بعنف، واندست تحت اللحاف دون أن تنزع ثيابها، وتكورت.

فـــي إحدى اللحظات نزلت من على الســـرير، جلســـت على ركبتيها علـــى أرضية الغرفة، شـــبكت أصابعها علـــى الفراش، وصلت بصوت مرتفع مثل طفلة صغيرة.

عادت تختبئ تحت اللحاف، وتضع رأسها بين وسادتين.

عندما توقفت رغبتها في البكاء، أصبحت معاناتها أشد.

ثم تفجرت.

***

جوف الليـــل. فتحت البوابة، عبرت الحديقة، صعدت الدرج، فتحت الباب، دخلت البيت في صمت.

لمحت شبحا يتحرك في الظلام.

أضاء الأنوار فجأة. كان واقفا بالبيجاما في المدخل.

- أنتظرك منذ ساعات.

كان وجهه مذعورا. وعيناه تبرقان.

همست:

- ألا تبالغ؟

أخذ يصيح:

- أين كنت؟

عندمـــا وجدته آن يرفـــع الصوت، اقتربت منـــه، نظرت في عينيه، خفضت صوتها لحد الهمس، وقالت:

- اصمت.

توقف عن الصياح، قال :

- جننت من القلـــق. كان يجب أن تتصلي. آن هل نظرت إلى الساعة؟

لم تجب آن. تجاوزته ودخلت قاعة الأكل. جلست أمام المائدة. تبعهـــا. أمالت عينيها نحوه، ونظـــرت إليه مطولا. انتصبت على الكرسي. تنفست بعمق. وقالت دفعة واحدة:

- سأهجرك. انتهى كل شيء.

كان واقفا في إطار الباب.

لم يقل شيئا في البدء، ثم همس:

- كرري.

- سنفترق.

- لماذا ؟

- حزر.

- لا أفهم. لماذا يجب أن نفترق؟

- أرجوك توماس. لا داعي للتفسير. سترحل.

- لا داعي لأن تتوسلي. نحن في عمق الليل.

- وبعد ؟

- تطلبين مني أن أرحل؟

- فعلا.

- انظري إلي آن!

استغرقت آن وقتا. نظرت في عينيه.

- لا أرى شيئا.

وضعت يديها على المائدة، كانت متعبة، وقفت. ثم توجهت نحو الممر.

سألها:

- تحبين أحدا آخر؟

هزت كتفيها.

- ليس الجميع مثلك، توماس.

أمسكها من ذراعها. شدد قبضته. سبب لها الألم.

- دعني!

نزعت نفسها من قبضته. صعدت الدرج. ذهبت لجلب الأغطية من المخزن. صعدت تهيئ سريرها في إحدى غرفتي الطابق الثاني المبنيتين تحت السقف. أمضت الأحد مختبئة تحت الغطاء. لم تأكل شيئا.

***

الاثنين صباحا، لم تصل بعد الثامنة، باب السيارة لا يزال مفتوحا، كانت آن وراء المقود.

وقف توماس في الشارع، يغلق أزرار قميصه.

أخذ يهمس بسرعة:

- أحبك.

- لا.

- لا يمكن أن نفترق بهذا الشكل.

- بلى.

- لقد مرت خمسة عشر عاما.
- وبعد؟
- يجب أن نتحدث.
- غير مجد.
- لكني لن أسـمح لك بأن تتصرفي في حياتي بهذا الشكل، من دون أسباب، ولا تفسير.

ارتفع صوته وأصبح مضحكا. وصل أحد المارة على الرصيف. قالت له بصوت خافت:

- اترك الباب، من فضلك.
- آن، أنا أحبك.
- غير صحيح.

فجأة انهار وجه توماس. أصبح شاحبا. سحبت الباب أخيرا.

- هذا المساء، هذا المساء... كان يتوسل من خلف الزجاج.

رأته من خلال المرآة يتكئ على غطاء إحدى السيارات الواقفة، ويرفع رأسه باحثا عن الهواء.

***

دفعت باب ناشر الموسيقى. قصدت مكتبها، وضعت الوشاح، والحقيبـة، والمعطف. دخلـت مكتب رولاند، شـغلت آلة القهوة وذهبت لجلب الماء من تحت الدرج. رفعت وجهها ناحية انعكاس صورتهـا في المرآة الصغيـرة المثبتة فوق المغسـلة. كانت امرأة يتغير جسمها حسـب المراحل. قوية، ورياضية (كانت آن تعشق السـباحة، وتسبح عدة مرات في الأسـبوع)، ومشرقة في بعض الأيام. نحيفة، وباهتة، وبارزة التقاطيع في أيام أخرى. كانت في

أحد أيامها السيئة. بارزة الملامح وشاحبة.

اتصلت بجورج روهل على الرقم الذي أعطاها إياه.

أجاب عن أسئلتها باقتضاب.

- لقد أيقظتك؟ أليس كذلك؟

- «أجل»، اعترف بعد لحظة صمت.

- سأتصل ثانية. افترقت عنك بطريقة مباغتة لا تؤاخذني.

- لا أؤاخذك.

- أنا مسرورة لأني وجدتك.

- أنا أيضا مسرور لأني وجدتك.

- كنت محتاجة إلى أن أكون وحدي. أنا محتاجة إلى أن أكون منفردة. أظن أن ..

- لم يسبق أن عشت بمفردك؟

- لا.

- سأشرب نخب هذا. سأفتح إحدى قنينات بهو أمي الجيدة عند الزوال. سأشربها وأنا أفكر فيك. سأشرب في صحة جوهرك ولقائنا. عيشي منفردة. عيشي منفردة، واحضري عندما ترغبين في ذلك. سأخبرك لماذا هو جيد أن تكبري إلى العمر الذي وصلت إليه. لأنه هو نفس عمري.

الفصل الثاني

- بالنسبة إليّ سأكتفي بقطعة من الكبد النيئ مع الهليون.

سكتا بعد أن أدليا بطلبهما. ثم استطردت آن. نادت على النادل من جديد:

- أرغب أيضا في بعض السلطة.
- سلطة بسيطة؟
- أجل. لكن من دون خل. ليمون. فقط ملح، وزيت زيتون، وليمون.

أحضر الساقي النبيذ. تذوّقه توماس. عندما انصرف الساقي، تحدث توماس بشكل رسمي.

- أود أن نتحدث بجدية.
- «سيكون الأمر كذلك طبعا»، أجابته آن.

ثم سكتا من جديد.

قالت آن:

- توماس، أتمنى أن تتذكر أني سأمضي نهاية الأسبوع في بروتاني. سأذهب السبت بعد الزوال. سأحتفل بعيد الملوك عند ماما.
- أعرف.

سكتا.

- ليس هذا ما أود التحدث عنه. آن، أود أن تحدثيني أنت.
- هذا صعب.
- أن تفسري لي...

- هنا أجد الأمر سهلا جدا.
- لماذا؟
- أشك في كوني من يجب أن يفسر. انظر إلى حياتك. تخيل حديقة فيها شجرة رند في شوازي. تعبر الأرض المغطاة بالعشب. تجد امرأة شابة في انتظارك في نهاية الدرج. تمد شفتيها نحوك.

توقفت عن الكلام فجأة.

لم يقطع الصمت. لم يرفع عينيه نحوها.

بعد ذلك تمتم :

- أخبريني، ماذا سيحدث وفق رأيك.

انتظرت أن ينهي النادل خدمتهما. عندما بقيا وحدهما، قالت:

- ارحل.
- لا.
- يجب أن ترحل، توماس. البيت في ملكيتي وكذلك حياتي.

قال توماس:

- انسي الأمر.

وضع منديله على المائدة.

- . لماذا يجب أن أقبل بأن تحطمي كل ما شكّل، لحد الآن، حياتنا؟
- لأني أصبحت في السابعة والأربعين من عمري، ولدت منذ سبع وأربعين سنة في مدينة صغيرة في بروتاني حيث كنا نحمل ضفائر طويلة على الظهر ونجر جواربنا إلى الركبة. هذا هو

السبب. لم يعد من حقي أن أغلط.

- وأنا هو الغلط؟

- لست غلطة، توماس. أنت خطأ. أنت بكل بساطة خطأ.

عندها ظهرت التهديدات على شفتي توماس. ارتفع صوته. أصبحت النبرة مخنة، وعنيفة فجأة. قدم مصطلحات الحق بدل المنطق. توعد أنه لن يتركها تقدم على ما نوت فعله. أقسم أغلظ الأيمان أن حياتها ملكه. أمسك يديها وقال بطريقة مباغتة:

- أحبك...

- توقف. لا تستعمل هذه الكلمة من فضلك وإلا نهضت.

- في أعماقي...

ثم كرر الكلمة، نهضت، وغادرت المطعم.

***

كان وقت الغداء، لكنها لم تكن تحس بالجوع. كانت موجودة في الحي الذي تشتغل فيه. ذهبت لشراء الجرائد. الجو كان ملبدا. والبرد قارسا لتستطيع الجلوس على أحد كراسي الحديقة العمومية. كانت على وشك الذهاب إلى أحد المقاهي وهي تتصفح جريدة الصباح عندما توقفت فجأة.

في الواجهة الكبرى لإحدى الوكالات العقارية، كان يوجد العديد من صور المنازل.

تفحصت الصور، والأسعار. كل شيء كان معروضا للبيع: محطة صغيرة لم تعد تعمل في الجبل. منزل في نويلي، وشقة في الباستيل، ومرفأ من العصور الوسطى وخال من الرمل على المحيط، وثلاثة قصور خاصة في الدائرة الثامنة. كانت لا تزال

تفكر، دفعت الباب بتأن، وهي حالمة، جلست أمام رجل مسن ذي شعر رمادي طويل، يرتدي بذلة مخططة، استمع لها بانتباه. بعد لحظة، قاطعها، نهض، وعرض أن يتبعها.

قصدا مكتب مدير الوكالة.

قدمت اسما اخترعته. فتحوا ملفا تحت الاسم الذي كان مزيفا. لم تعلم أحدا. لم تقل شيئا لأحد. أخذوا فقط رقم هاتفها. جوال قديم محرر يعمل بالتعبئة. كانت قد اشترته منذ عامين من باب سانت - أون.

***

قدمت استقالتها بعد الزوال. تفاهمت بسرعة مع رولاند.

- عملت معه لأكثر من عشر سنوات، كان ناشرا موسيقيا.

موافق آن، باختصار، لم تعودوا تشتغلون معي، لكني أظل ناشر كل ما ستقومون بتأليفه؟

- أجل.

لم يعرف ماذا يقول. لهذا اكتفى بقول :

- لا أعرف ماذا أقول.

- هذا أفضل.

- بداية سنة غريبة.

- أجل.

أضاف:

- الجو حار، شيء غريب. حديقتي ممتلئة بالبراعم.

- آه!

اتفقا على أن تبقى أسبوعا، ليس فقط من أجل إخباره بكل

الأعمال الموجودة في طور الإنجاز، لكن أيضا لتشرح له كل حيل وهوس حاسوبها.

- إذا تم إنجاز كل شيء يوم الجمعة، فسأنصرف الجمعة. أنوي زيارة والدتي، في البروتون...

- بالطبع، سننهي كل شيء متى أردت.

- سأظل فترة أطول من الفترة التي يقضيها الملوك في هذه الحالة.

- آن، هذا ما سنفعله. سأدفع لكم أجرة أشهر الإشعار.

- التي لن أشتغل بها.

- التي لن تشتغلوا بها. سأواصل نشر أعمالكم وسنظل صديقين وفيين.

نهض رولاند - لأول مرة - لف حول مكتبه، أمسك ذراعيها، وقبلها على الوجنتين.

رتبت آن هيدن مكتبها في الحال. غادرته وهي تحمل بين ذراعيها علبة كرتون أفرغتها في صندوق القمامة الكبير الموجود في الساحة.

***

اتصل بها مدير الوكالة العقارية في المساء. لم يكن توماس قد دخل بعد.

- السيدة أميان؟

- نعم.

- هل أستطيع الحضور غدا مع مساعدي؟

- كما تريد.

- غدا، هو الخميس.
- أجل.
- الغد في بداية الصباح؟
- أفضل بداية بعد الزوال.
- أنا لا أستطيع، لكن مساعدتي ستأتي.
- شكرا.

حضرت المساعدة رفقة صديقها، أخذا القياسات. رسمت المرأة مخططات صغيرة. أخذ الشاب العديد من الصور. لم يكونا مستعجلين. دام الأمر ساعة. حصل أن الشاري هو الآخر عرفها في البداية باسم أميان. بعد ذلك بررت تصرفها بكون الأمر يتعلق بكنية زوجها الأول. لكن هي لم يسبق لها أن تزوجت. لم يطلب منها توماس الزواج واستعمال اسمه. بالنسبة إلى الرجلين اللذين عرفتهما قبله، هي من لم يرغب في ذلك. كانت امرأة فريدة. معروفة في عالم الموسيقى بأن هيدن. كانت قد عمدت في بروتاني، على الطريقة الكاثوليكية، التي هي ديانة والدتها، تحت اسم إليان هيدلشتاين. لم تكن تخرج أبدا. لم يكن أحد يعرف وجهها - صحيح أن الموسيقى المعاصرة كانت جد محتقرة، في بداية القرن الواحد والعشرين، في العالم برمته، وأن كل ما كان يؤلف على الأرض، كان من دون وجه.

على الأقراص المدمجة، كانت تختار أجزاء رائعة من السماء العاصفة التي ترى أنها تتناسب مع ما تؤلفه. ثلاثة أشرطة. شريط كل عشر سنوات تقريبا. كانت تؤلف قليلا. أحبت العمل عند رولاند - حيث كانت أكبر شيئا ما من مدققة - لكن ليس

أكثر. كانت ذات طبع غريب: سـلبية بشكل رائع. تقريبا متأملة. لكن هذا الجمود الظاهر كان يحوي نشاطا نظيفا. هادئة، هادئة من دون سكون، هادئة بدون كلل، عنيدة، شديدة التركيز في كل حين. لم تكن تطيع أحدا لكنها أيضا لا تعطي أوامر لأحد. تتكلم قليلا. تعيش حياة غير مرئية تقريبا، محاطة بثلاث آلات بيانو، مغطاة بآلات البيانو الثلاث، غير ودية، منعزلة تقريبا، مثابرة، متوازية. عندما رفعت عينيها إلى الماء الجاري، أمامها، كان كل ما يحيط بها قد أصبح رماديا. وحده الرصيف المقابل كان أبيض. الأشجار والزورق كانا رماديين- بنيين في الضوء الباهت.



الفصل الثالث

بعد أن انصرف موظفا الوكالة، غادرت المنزل بدورها. ركبت سيارتها، قادت السيارة، اشترت تعبئة من أحد الأكشاك، وأخذت سجائر لوكي. ثم سارت بالسيارة. وصلت أسفل مودون، على الطريق التي تؤدي إلى سيفر. كانت الريح خفيفة. وهواء باريس يعبق برائحته الخاصة، عفن، رائحة خنازير، مازوت، فظاعة. على حدود العشب، لمحت جذع شجرة أبيض، حاصره الأسمنت، جلست عليه.

كانت الشجرة قد قطعت حديثا ولا تزال تعبق برائحة التراب القديم غير المرئي. حل المساء.

نحو الخامسة، حل الليل.

ظلت جالسة أمام النهر تنظر إلى الماء يضرب الحافة. معاناتها كانت لها بالمرصاد.

وهي جالسة على جذع الشجرة أرغمت نفسها على التفكير.

طردها المطر والزوبعة فجأة.

لم تجد الحلول للأسئلة التي ظلت تطرحها منذ ساعة، إلا وهي تجري بسرعة نحو سيارتها، هاربة - مندفعة تحت هبة المطر الدافئ.

هناك، جلست خلف المقود، في مأمن داخل السيارة، يصمها صوت المطر وهو يضرب سقف السيارة المعدني، يلفها الليل والمطر، على طول السين، قرب جسر الآفر Avre الذي تضيئه المصابيح، عاد السلم الداخلي إليها شيئا فشيئا.

إن لم يكن سلما، فقد لفها هدوء عميق، وواسع، وقلق، ونشيط.
كان حلا جذريا.
الحل البسيط هو الأروع.
مباشرة، دائما في مأمن داخل السيارة، اتصلت بالوكالة العقارية، من خلال محمولها. أخذت موعدا للغد نهاية الصباح.

***

- تعرفون، قليل من الناس يقومون بعمليات الشراء في بداية يناير.
- هل أستطيع بيع الأثاث في نفس الوقت مع المنزل؟
- إذا أردتم، لكن المسألة معقدة. من الأحسن التفرقة في البيع.
- لماذا؟
- شيء بديهي بالنسبة إلى آلات البيانو.
- بالنسبة إلى الآلات، أعرف لمن ألجأ.
- بالنسبة إلى الأثاث، صحيح أننا لم ننظر إليه أمس من هذا الجانب لأنني لم أستوعب رغبتكم. لكني متأكد أنكم إن بعتم الكل معا، فستخسرون.
كان مترددا.
- يجب أن أرى بنفسي.
- هل تقبلون؟ هل يمكن أن تجروا تقديرا؟ شخصيا أفضل ألا أضطر إلى الاهتمام بكل هذا.
كان يفكر.
- إذا رغبتم في ذلك فعلا، يمكن أن أتكفل بالأمر. أعرف

بائعي تحف. وأعرف أيضا بائعي الأثاث المستعمل...

- سيدي، هل لديك وقت كي نتغدى معا؟

- لا، لا وقت عندي.

ألحّت.

قال أخيرا:

- صحيح إننا الجمعة. وإننا في يناير. موافق، لكن لساعة. ساعة فقط!

نهضت وهي تبتسم.

- أعرف مطعما كل الأكل فيه لذيذ إذا انحزنا إلى أطباق اليوم.

مالت نحو المكتب، أخذت السماعة، وضغطت على رقم.

- سبق أن عملت في هذا الحي. دعوني أحجز.

بعد خروجهما من المطعم، وبعد أن افترقت عن مدير الوكالة، اتصلت من هاتفها النقال بجورج روهل. لم يكن في شوازي. اتصلت برقم تييي سور يون الذي أعطاها إياه.

- جورج، لم تتحدث عني؟

- لا.

- لم تذكر اسمي أمام أحد؟

- لكن ماذا دهاك؟ مع من تريدين أن أتحدث؟ مع من تريدين أن أستطيع الحديث؟

- أجبني.

- لكن لا! لا. أعيش منفردا. منذ أن توفيت ماما أنا وحيد تماما! نعم، في الواقع، كلمت طيف ماما كثيرا عنك.

- أنا امرأة متطيِّرة. لا تتحدث إليّ هكذا!

- أنا وحيد، وحيد، فعلا وحيد، آن إليان، لا يمكن أن تتصوري. منذ زمن بعيد لم يعد لي عشاق.

- أفضل لك.

- شر مجاني.

- أكرر، أفضل لك. وأفضل لي. احفظ السر، جورج، أرجوك.

- سأفعل كل ما تريدين.

- عِدْني. لن تتحدث عني ولا عن لقائنا لأحد.

- أقسم بذلك.

- تقسم لي حقا؟

- أقسم لك حقا.

- جورج؟

- نعم.

- هل يمكن أن أراك عاجلا؟

- أنا في تيبي.

- أعرف. إذا ركبت القطار، كيف أفعل؟

- تذهبين إلى محطة ليون، هناك قطار الخامسة والنصف. هو مباشر إلى سانس.

- لا. ليس اليوم. هل يمكن غدا؟

- غدا، صباحا، تركبين قطار التاسعة. هو أنظف. أكثر صمتا ورائع. هو أيضا مباشر، لكن يجب أن تستقليه من بيرسي وتتوقفي أيضا في سانس.

- موافقة. ماذا سأفعل في سانس؟

- ســأنتظرك فــي المحطة. أتصل بمطعــم جوانيي من أجل العشاء.

- لا. أريد العودة مســاء. وعدت ماما بــأن أكون عندها من أجل الملوك...

- إذن سنذهب إلى توبيي.

- كما تشاء.

سكت.

- إلهي! ستذهبين هناك، صحيح، تمتم بصوت مملوء بالقلق. منــذ أكثر من ثلاثين ســنة علــى الأقل لم أرجع إلــى هناك... ســأضعك في قطار الخامسة في ســانس. ستكونين في باريس الساعة السادسة. لن تحتاجي إلى المرور على بيتك.

- أفضل ذلك.

- ستذهبين مباشرة من محطة بيرسي إلى محطة مونبارناس.

- أجل.

- خط المترو مباشر.

- أجل.

***

كان ينتظرها على رصيف محطة ســانس الطويل والرهيب. يرتدي قميصا قطبيا أسود فوق سروال جينز أسود. كانت تمطر لكنه كان يعتمر قبعة بورســالينو كبيرة من الجلد الأســود تغطي وجهه.

- آن إليــان، لا تقبليني، أنا مريض بعض الشــيء. أظن أني مصاب بالرشح.

قبلته آن.

كان يقود سيارة ستروين قديمة شاحنة رمادية.

تبعا النهر والصفصاف. توقف على الحافة، في موقف سيارات مغلق أمام باب مدينة توييي الصغيرة.

اكتشفت قرية على الماء، بين فيل- نوف - سور - يون وجوانيي. لم تكن قرية. مرفأ من القرن السابع عشر تحيط به الأسوار. أبواب المدينة الصغيرة الثلاثة ضيقة ولا تسمح بمرور السيارات. كانت فينيسيا صغيرة حديثة. مدينة خاصة بالمشاة وصامتة تماما. البيوت صارمة وعتيقة، حمراء وسوداء. كانت البلدية قد قررت بعد الحرب أنها لا ترغب في إحداث تغيير. بعد ذلك قبلت مال المنطقة أو الإقليم لكنها فضلت التحديث الأقل ظهورا والأكثر تكلفا. بتلك الطريقة أصبحت القرية نادرة، غالية، طبيعية، حديثة، وأكثر غنى.

مشيا مائة متر.

دفع بوابة حديد تفضي إلى ساحة بائسة. كانت هناك دراجة نارية سوليكس في الساحة.

- تركبها؟

- هذه المنازل كانت لصديقي. لقد توفي.

- المعذرة.

- لا تعتذري. لقد توفي منذ اثنتي عشرة سنة.

- أحببته كثيرا؟

- أكثر من كثير. أحببته باختصار. أحببته.

- تستعملها؟

- أستعملها لتسلم الطرود من البريد أو للتسوق. المدينة من دون شاحنات ومن دون سيارات، لكن البلدية لم تستطع منع الدراجات النارية ..

- أستطيع أن أستعملها أنا أيضا؟

- متى شئت.

- كانت هناك دراجات سوليكس في بروتاني.

- كانت هناك بالخصوص دراجات بوغو كبيرة بحاملات أمتعة ضخمة.

دخلا البيت الرئيسي الواسع، الذي لا تثير رحابته انتباها كبيرا، وهو نظيف جدا، مريح جدا، كثير الأثاث، ظريف جدا، فاخر، يشتمل على العديد من الغرف، حيث يعيش جورج أغلب الوقت.

تمتد بعده الحديقة، بأشجار البقس، والخيزران وكتلة كبيرة من الأرطنسية، ونافورة صغيرة بجانب أحد الحوائط، وشجيرات ورد كبيرة في كل مكان.

بعد الحديقة بيتان قديمان يفضيان إلى الماء. الواحد ناحية الشمال، تغطيه الوستارية. والآخر ناحية الشرق، مدفون في اللبلاب.

في أقصى الحديقة - عندما نكون على حافة الإيون وحين نستدير - كل حائط البيت الرئيسي الخلفي إلى المزراب الأسود، إلى حدود السقف، كانت تغطيه الورود.

كان لكل بيت من بيتي الضفة زورقه وشجرته. زورق بيت اللبلاب الأسود كان متصلا بحلقة مثبتة مباشرة على الحائط

الذي يطل على نهر اليُونّ. كان مغطى بأغصان ضخمة وشائكة لشجرة ورد بري.

بيت الوستارية ناحية الشمال كان يشتمل على أربع غرف. كان صديق جورج قد أحاله مرسما. لهذا كان ممتلئا باللوحات المقلوبة. في حين جمع فيه جورج أقراص الفينيل، والحاكي الكهربائي، وأشرطته القديمة. كان لهذا البيت زورق من البلاستيك الأخضر الفاتح مختبئ باستمرار تحت شجرة صفصاف.

البيت اليميني المختبئ في اللبلاب كان مهجورا منذ سنوات. في الغرفة الأولى التي تؤدي إلى الحديقة كان هناك فرن قديم وطاولة بلياردو متآكلة. في الغرفة التي تطل على الإيون سرير عتيق، بأعمدة، عال على أرجل تحيط به الرفوف. في الطابق غرفة فارغة تغطي أرضيتها حقائب ممزقة. في جميع الغرف المهجورة، ستائر أكلتها العثة يغطيها الغبار.

- شيء لا يحتمل!

كان وجه آن قد غطته خيوط عنكبوت.

- المكان ممتلئ بالعناكب.

- جاري مهووس بالنظافة.

- أي علاقة؟

- كل شيء في بيته ينظف بماء جافيل. بما في ذلك الفرن والتلفزيون، وصندوق الرسائل. هو ظريف لكنه لا يتوقف عن ملاحقة الحشرات التي يراها بقارورة تحتوي على مبيد للحشرات. هذا يفسر لماذا تمتلئ بها حديقتنا. كل العناكب المضطهدة وجدت ملجأ هنا.

على حافة الماء أرَاهَا أشجار اللوف وشجيرة الورد الضخمة التي أصبحت وردة برية وهي تمتد انطلاقا من الضفة، وقارب لوار القديم، وأشجار التفاح، والبط البري الذي يغطس تحت أشجار البندق ثم يستريح تحت صفصافة المركب ناحية الغرب.

كان المطر الناعم يهطل دوما، من دون أن يقطع خيط الضباب على النهر.

جسر تييي العتيق كان كأنه يطفو خارج الكون، فوق السحاب الممطر.



الفصل الرابع

- هل سنذهب على أرجلنا؟
- طبعا.
- أغلق باب المنزل. كانت تنتظره على الرصيف، أمام البوابة.

قال لها:

- أعطيني ذراعك.
- كل سكّان منطقة تيبي سور يون سيتهامسون بشأننا.
- نِعّم الأمر. أي سعادة!

بهذا الشكل ذهبا إلى المطعم الموجود مباشرة على رصيف المرفأ، قرب الجسر.

كان الضباب قد التف على أعمدة الجسر والزيزفون.

- لم تكن رؤية ماء النهر ممكنة.
- شيء لطيف.
- أي شيء؟
- أن تحس بذراع امرأة على ذراعك.

أخذ جورج سمانا. (بندق مقلي، وعصيدة).

أخذت آن قطعة هبر حمل. (فطر أصفر مقلي).

لم يتوقف جورج عن التعبير عن سعادته بتناول العشاء معها.

بعد ذلك وهما ينتظران موعد القطار، سارا بمحاذاة النهر.

كان الضباب قد انقشع تقريبا. الجو لطيف. على الحافة المرصفة كان هناك مقعد من حجر. الموجات الصغيرة كانت تشع

فوق أوراق زنابق الماء. شجيرة كرزية كانت قد نمت في فجوة بين حجرين، على حدود اليون.

لم تتحدث آن هيدن عن شيء محدد. حثها جورج على مصارحته لكنها لم تبح بأي شيء. قال:

- لا أشك في أن زميلتي الصغيرة تحولت إلى حلزون وأرى أنها تختبئ في قوقعها.

أمسكت يده ليصمت.

توقفا عن المشي.

قالت له:

- جورج، لا أرغب سوى في قطع علاقتي بتوماس:

أريد قطع كل اتصال. ليس معك، طبعا. إلا معك. أنا محتاجة إليك.

- ماذا يجب أن أفعل؟

- لا أعرف. بالنسبة إليّ أريد إطفاء حياتي السابقة.

- هل أنت متضررة؟

- لا. لا أعرف كيف سأتصرف. في هذا الوقت ابق بجانبي، كن صبورا، كن صديقي! كن صديقي الوحيد. موافق؟

- موافق، لكن لماذا؟

- لا تسأل واحفظ السر.

- أعشق الأسرار.

- ليس الأسرار. السر.

- أعدك السر.

تأججت غبطة جورج. كان رجلا عاطفيا إلى أقصى حد.

من هو الرجل العاطفي؟ هو رجل لا يحب أن يأكل منفردا. عندما تخيل جورج أنه سيتعشى مع آن، دمعت عيناه. برغم أنه لم يبك في الحقيقة، كان يقول: « سأتعشى معها. عيناي تدمعان».

***

توجت ملكة في نفس الأمسية.

في الليل المتأخر.

ملكة بحذاء.

رغم أنف أمها.

-« إنها إشارة»، فكرت آن وهي تدخل سريرها الطفولي، وتسحب عليها اللحاف (بحثت بقدميها عن السخان النحاسي) «إنها إشارة تدل على أنني على حق في رغبتي في مغادرة هذه الحياة».

***-

في نهاية غداء الأحد الحادي عشر من يناير، أخبرت السيدة هيلدنشتاين ابنتها ذات السبع والأربعين سنة أنه يجب ألا تأخذ كل العفونة وهي تقطع الجبن الركفورد.

- أقل شيء، صغيرتي هو أن تأخذ كل منا قطعة من البياض.

قطبت جبينها.

عندها أصبحت عيناها بالأزرق القاتم.

لون أزرق مثل جلد القرش.

أحست آن فجأة، في جسمها، بكل بطن وصدر أمها اللذين يغليان بالسخط ونفاد الصبر تجاهها.

خلال بضع ساعات بجانب أمها عادت كل الطفولة الصغيرة.

الحرمان، والتبعية، والتربية، والوسواس الأهوس، والضيق، والكره، كلها طفت إلى السطح.

توتر الجو من جديد مثل وتر كمان على الملمس.

تحولت كل الأفراح، التي منت بها نفسها قبل أن تأتي، إلى محك صعب التحمل. عندما نهضت آن في نهاية الطعام لتحضر البسكويت من الفرن، غشت الابنة الوحيدة لكي تتوج أمها ملكة. لكنها عندما عادت به إلى المائدة وقطعته أخطأت في حيلتها. برغم ذلك أرادت وضع التاج على الشعر القصير والهرم لوالدتها الغاضبة. لم تسمح والدتها بذلك. في تلك السنوات، في بروتاني، على ساحل المحيط الأطلسي، في فرنسا، في بداية القرن الواحد والعشرين، كانوا يقصون شعر السيدات المسنات على شكل قصير. مما كان يجعل رؤوسهن أشبه برؤوس الأطفال الصغار. ثم يصبغ الشعر بلون فظيع أبيض، وأزرق شبيه بالسائل الذي يصفه طبيب الأسنان للفك المريض.

الفصل الخامس

كانـــت والدة آن تعيش وحدها فـــي بروتاني في فيلا ضخمة شيدها جدها. عندما توفـي جـدها، عنـدما هجرهما والدها، لم ترغب مارت هيدلشتاين أبدا في مفارقتها ولو من أجل العطلة. كانـــت تتوقع أن يعود زوجها فجأة بعـــد أن يحس بالذنب ويضع ركبته على ســـجاد الصالون أو بســـاط المدخل أو رمل الشاطئ ويطلب الصفح.

كانت مستعدة للمسامحة.

تليها فيلتان، الإمبراطورية الثانية، أكثر فخامة، تؤديان أيضا إلى الشـــاطئ، بعيدا، على حافة البحر، بزينة أكثر أهمية وأكثر شبها بالنمط الإنجليزي.

بيت هيدلشـــتاين كان مـــن دون الجملون، من دون دعائم، من دون قرميد بارز. زينته الوحيدة كانت مشربية تطل على المحيط، سياج عال أسفل الحديقة يتقدمه صف من الأرطنسية الزرقاء. ودرج كبير دائري تغطيه الرمال دوما يؤدي مباشـــرة إلى الطريق المحاذية للساحل.

خلال المد الكبير، يعبر البحر الطريق.

خلال مـــد الاعتدال يصعد البحر المنحـــدر ويصل حين تهب الرياح إلى البوابة ويغطي نباتات الأرطنسية.

طابقان، ســـت غرف، أربـــع منها صغيرة، فـــوق، مليئة بالملح والرمل. لم يســـكن أحد فوق. كان لها أخ صغير، توفي وهو يتألم بطريقة تســـتعصي على الوصف في أحد مستشـــفيات باريس.

رحل والدها مباشرة تقريبا بعد الوفاة. كان عمر آن ست سنوات. ورق الحائط الملون (ببغاوات في غرف الطابق الأول، وسوسن في الطابق الثاني) كان ملطخا، بسبب الرطوبة، منذ زمن بعيد. كانت الأركان متآكلة بسبب جو البحر.

غفت والدتها على الكرسي فجأة، قبل أن تنهي حصتها من التورتة. أتعبها الغضب الداخلي. تركت آن والدتها تغفو. ونهضت. وضعت تاج الورق المذهب في القمامة. التحقت بالصالون دون أن تحدث ضجيجا.

كان الصالون مملوءا بالإطارات القديمة. صور العائلة. مئات الصور تغطي كل الحيطان. أصبحت أمها تقتسم وقتها بين الصالون والمطبخ. بعد أن وضعت سريرها وسط الصالون.

كانت النتيجة بشعة.

***

- هل ترين، لا أستطيع الصعود بسبب رجلي.

أحست آن برغبة في المشي على الشاطئ. ائتزرت بخمار لوالدتها كان معلقا في المدخل مع الأوشحة والقبعات. أحست بالدوار. اتكأت على الدرابزين. فتح الباب فجأة. دخلت فيرونيك.

- إليان؟

- نعم.

ماذا أصابك؟ لست بخير؟

- بلى، بلى، أنا بخير. كنت خارجة.

- أردت إخبارك أننا سنتعشى كلنا عندي بالبيت هذا المساء.

- من تعنين بكلنا؟

- كل الفتيات.
- كل مرة تقومين بنفس العزومة.
- إذن ستعزفين شيئا مثل كل مرة.
- إذا شئت، فيري، لكن تعالي معي. لدي رغبة في الخروج.
- «سأذهب قبلا لأقبل والدتك»، قالت فيرونيك.
- غير مجد.
- لماذا تقولين هذا؟
لم تتوج ملكة. إنها نائمة.
كان بوسعك...
سحبتها آن في الريح.
كانت تعزف مستقيمة، يداها مستديرتان، وبقوة. في كل مرة كانت فيري تستمع إلى آن تعزف منذ الطفولة يأخذ جسمها في الارتعاش تحت الجلد.
لم يكن الأمر يتعلق بالموسيقى. لكنه العنف الذي توقف كبحُهُ، فجأة.
القلب، الرئتان تحت الخاصرة، ثم عندما أصبح لفيرونيكا ثديان، تحت الثديين- ترتعش.
كُنّ في شقة فيرونيكا الصغيرة فوق الصيدلية، في بروتاني.
- كانت آن جالسة أمام البيانو البُنّيّ الذي يضرب لونُه إلى الحُمرة.
وكانت هناك شمعداناتٌ من نُحاس غريبة وصاخبة، مسمرة، مباشرةً، على حافة الطاولة الصغيرة، وهي متحوفة في أعاليها بزجاج يشبه ألسنة اللهب، وتُصدر ضجيجاً رهيباً.

كانت آن قد حضَّرت الفطور بنفسـها، قبل أن تغتسل، بسبب موعد القطار.

وضعت المائدة في المطبخ.

ظهـرت والدتهـا فجأة في بـاب الصالون شـعرها القصير الأبيض والأزرق مشعث فوق قمة الرأس.

صعـدت آن إلى غرفتها ثانية من أجـل إحضار الحقيبة، نزلـت من الطابق، وضعت حقيبتها في المدخل، ثم عادت إلى المطبخ.

صبت القهوة. كانت والدتها قد بدأت تبكي، كانت تجلس بين المائدة والنافذة. الظهر متصلب والذراعان متشنجان.

- ماما، هل ترغبين ببعض القهوة؟

- لا.

راقبت الأم الابنة تشرب القهوة وهي تشهق.

تثني حاجبيها وترغم نفسها على البكاء.

- ماما يجب أن أنادي على التاكسي.

- قبليني.

نهضت آن وقبلت والدتها.

يوجد لدى المسـنين حنان مقرف، ومفـرط، ونتن، وعظمي. يضمونك بين ذراعيهم. عناقهم نفسه يؤلم بينما توخزك العظام بخفتها ونعومتها وزغبها الأشعث، والدبابيس والدمالج.

بما أنك تغادرين، فسأهيئ القائمة.

وضعـت آن الفنجـان في صحنـه وراقبت والدتهـا. راقبت الأصابع المشـوهة التي أضخمها المرض، المتآكلة بسـبب القرب

من المحيط، وهي تبذل مجهودا كي تمسـك القلم من أجل كتابة القائمـة التي سـتعطيها لآن بمتطلبـات البيت. زمَّت السـيدة هيدلشتاين شـفتيها. كانت مشـدودة وتركز على الكلمات التي تكتبها جزر، هندباء كي تكون مستقيمة على القائمة.



الفصل السادس

الاثنين، فـــي باريس، عندما رجعت، متعبـــة، رأت الضوء في كل النوافـــذ. كان توماس قد حضر المائدة في غرفة الطعام. كان ينتظرها للعشاء.

- هل مر كل شـــيء على ما يرام؟ هل أمك بخير؟ من حصل على حبة الفول؟

- جيد، جيد، جيد.

- هل رأيت...

أشار إلى المائدة المحضرة، كؤوس النبيذ، الشموع التي أشعلها.

- جميل جدا، لكني متعبة.

- حضرت...

- لست جائعة، اعذرني، أنا حقا متعبة.

صعدت لتنام.

في اليوم التالي كان ينتظر أسفل الدرج، مسرح الشعر، حليق الذقن، لابسا ثيابه، مرتديا ربطة عنق.

- آن يجب أن أحدثك. الأمر ضروري.

- تكلم.

- ولو سافرنا معا إلى إنجلترا؟ اسكتلندا؟ سأذهب إلى إنجلترا بعد خمسة عشر يوما. السبت الواحد والثلاثون. سأذهب بالأوروستار. سأشتغل طيلة الأسبوع في لندن. ثم أعود الأحد التالي.

- ستعود الثامن من فبراير.

- أجل الثامن. هذا ما أرغب فيه. لماذا لا تلتحقين بي الجمعة؟

- السادس؟

- هو ذاك. السادس. سنأخذ ثلاثة أو أربعة أيام.

- هذا لا يناسبني.

- لماذا؟

- لا أرغب في ذلك.

- ليس جوابا

لا أريد ولا أستطيع.

- إلهي!

- لدي عمل لدى رولاند

- ستأخذين فقط نهاية الأسبوع؟

- لا.

- تقولين دائما لا.

- هذا صحيح.

- بسببي؟

- لا. هكذا. أقول لا. لست محتاجة لتبرير رفضي.

تخطته.

- الآن يجب أن أذهب للعمل!

ارتدت معطفها الواقي. أغلقت الباب. اجتازت الحديقة. كانت دائما تتصرف قبله بساعة ويرجع هو متأخرا جدا. من الآن فصاعدا أصبحت مضطرة لتصنع الذهاب إلى العمل. كانت تتسكع وتنتظر أن ينصرف.

تقوم بالتسوق هنا وهناك، ترجع، تراقب الضوء في النوافذ، أو انصرافه في الشارع، تفكر، تكتب مثل والدتها لوائح لساعات،

تبكي في بعض الأحيان. كانت قد عادت للتدخين بطريقة شرهة، سجائر لوكي لجلب السعادة.

***

ابتعدت فجأة بنفور من درج المكتب الأسطواني.

كانت تضع فيه كل الصور.

سمعت رنينا حديديا قويا يصدر من تحت.

أسرعت إلى النافذة.

كان السمسار قد دفع البوابة ودخل إلى الحديقة، نافد الصبر. أغلقت آن الدرج الكبير وهي تدفعه بكلتا يديها.

***

ذهبا إلى المطبخ لشرب القهوة في انتظار بائع التحف.

- ربما غيرت رأيي لآخر مرة.

- لم تعودي ترغبين في البيع؟

- طبعا أبيع. كنت أقصد الأثاث.

- هو ذا بائع التحف!

أشار من نافذة المطبخ إلى خوذة دراجة نارية تتخطى البوابة.

ذهبت آن لتفتح.

سبقته إلى البيت. كانت ترغب في أن تريه كل ما ترغب في بيعه. لكنه لم يشأ التصرف على ذلك النحو.

- فلنبدأ من البداية، قال بعد أن نزع خوذته ووضع فيها قفازيه الجلديين.

سحب شريطا متريا وقام بالقياسات. بعد ساعتين قدم لها لائحة.

- لائحة الأثاث؟
- لا. لائحة الأشياء التي تهمني. يجب أن أحضر آلة التصوير. فقط خمس قطع تهمني فعلا.
- إذن لا، حقا لا، لا أريد أن نتصرف بهذا الشكل.
- ماذا تريدين أن أفعل؟
- أريد عرضا لجميع الأثاث بدون آلات البيانو.
- لا أملك الإمكانيات لفعل ذلك. ألتزم بالنسبة للقطع الخمس التي حددتها. أقدم لك عرضي الآن.
- لا. أفضل أن تمر عبر الوكالة.
- كما تشائين.
- أجمل شيء تقدرين عليه هو بلا منازع «الستينغرايبر»، لكني لا أستطيع.
- لا تقلق بشأن آلات البيانو. هذا شغلي. أعرف هواة مجموعات سيهتمون بها. أتولى الأمر.

وضع خوذته، رافقته آن، ركب دراجته. كانت آن تفكر. التفتت نحو السمسار الذي كان يقف نائما. كان الجو رماديا. وهما واقفان على الرصيف.

- سنعرض المنزل للبيع. هذا هو الشيء الوحيد الذي أنا متأكدة منه. بالنسبة للأشياء الأخرى سأرى. سأعلمك. سأعاود الاتصال بك.

رافقته إلى سيارته.

***

عندما عادت كان منتصف النهار. ظهرت الشمس في السماء من جديد.

أغرقت أشعة الشمس الرصيف، والحديقة، ودرجات الأحجار، والمنزل.

كان المنزل جميلا جدا في ضوء الشتاء.

قالت في نفسها:

«أنا على حق، هذه الشمس على حق، شعاع الشمس هذا الذي يلمس منزلي هو أقدم وأوثق إشارة. يجب أن أبيع».

أخذت دفتر شيكاتها، وحقيبتها، ومعطفها الواقي، وذهبت مباشرة إلى البنك.

طلبت سحب عشرة آلاف يورو نقدا.

- كثير.

- هل تفضل أن أسحب كل شيء.

- لا تأخذي كلامي على هذا المحمل، سيدتي.

- آنسة.

- آنستي، يلزمنا يومان. يجب أن نبلغ عن هذا السحب نقدا. عندما يتجاوز المبلغ ثمانية آلاف يورو نكون مضطرين لـ...

- سأكتفي اليوم بسحب سبعة آلاف يورو.

قصدت الخزينة وسحبت سبعة آلاف يورو. غادرت البنك. واتجهت نحو المسبح. حقيبتها الرياضية كانت لا تزال في صندوق السيارة.

***

في اليوم التالي، كانت آن مذهولة عندما اتصلت بها المساعدة الشابة في الوكالة العقارية على هاتفها النقال: كان هناك عرض للشراء. المشترون المحتملون كانوا قد استمتعوا بالنظر عبر

فجوات البوابة. كانوا يقطنون بروكسـيل. تمنوا أن لو استطاعوا زيـارة المنزل - الزوجة، الأطفـال، الكل - في أقرب فرصة. كل شيء يمكن أن يتم بسرعة - قبل ستة أشهر، قبل الصيف إن كان ممكنا، المشـتري كان قد عين في باريس. كان يود صباغة المنزل وتنظيم انتقاله خلال العطلة المدرسية الصيفية. لم يطرح الثمن المبدئي مشـكلا. كانوا مهتمين بالموقع، والحديقة، وعدد الغرف أكثر من أي شيء. متى تستطيع مرافقتهم؟ اليوم؟

- لا.

- غدا صباحا؟

- لا.

- قبل نهاية الأسبوع. هم الآن بباريس.

- غـدا إن كنتـم ترغبون فـي ذلك، لكن ليـس قبل الحادية عشرة. أنام لوقت متأخر.

قالـت أيضا إنها تفضل ألا تكون حاضـرة. لم تخبر توماس بأي شيء.

الفصل السابع

كانت تمسك بين يديها صور والدها من جديد. كان رجلا قصيرا نحيفا، بأنف حاد. شعره مدهون كما كانوا يفعلون من قبل، مسرح إلى الخلف، لكنه ثائر، أشعث شيئا ما. نزلت ثانية إلى المطبخ. كانت تقول في نفسها: «يجب التخلص من كل شيء، مهما بلغ الضيق الذي أحس به يجب التخلص من كل شيء. أعرف أنه يجب أن أفارق كل شيء». أوقدت نارا وأحرقت صور والدها الواحدة تلو الأخرى. رمت الصور فجأة عندما لحست النار اللحم. تركت الرماد يسقط في إحدى المغسلات المعدنية. أحرقت تقريبا كل محتويات المكتب الأسطواني. جمعت الرماد في يدها بواسطة قطعة إسفنجية. رمته في القمامة. كانت تقول في نفسها: «هذا هو، هذا هو، يجب رمي كل شيء وحرق ما لا يمكن رميه». أخرجت من إحدى خزانات المطبخ مخزون أكياس القمامة البلاستيكية. «سأملأ كيسا كل يوم». أخذت قطعة من الورق اللاصق الأبيض الباهت كتبت عليها الاسم الذي أعطته للوكالة، خرجت إلى الحديقة، فتحت البوابة التي تفضي إلى الشارع الرئيسي، وألصقته على علبة البريد. صعدت إلى الطابق الأخير وملأت كيسا يسع مائة لتر بالثياب. كان الأمر يسبب لها الكثير من القلق. اتصلت بإيموس. اتصلت بالغوث الكاثوليكي. كم كان صعبا أن نعطي! قبلوا أن يتسلموا. رفضوا أن يأخذوا. دقّ جرس البوّابة.

أغلقت باب الغرفة، أخذت سترتها.

أعطت نسخة من المفاتيح لمدير الوكالة الذي جاء.

- ضعها في علبة البريد بعد أن تنتهي.

استقلت سيارتها وذهبت إلى المسبح.

فـــي كل مرة تعب جســـمها وهـي تغطس في مياه المســـبح، أو تواجدت في صوت المسبح الغريب، اكتسب قوة خاصة.

رغـــم الكراول العنيف، رغم المجهود، والتعب، لم تســـتطع أن تنزع من أحشائها القلق الذي اجتاحها.

وهي تخرج من المســـبح ســـمعت أجراس صلاة الستار، رأت الكنيسة مفتوحة. كان شعرها مبللا، ترددت. كانت دائمة الوقار وهي تدخل إلى عتمة كنيســـة. لكنها دخلت. وجدت ركنا تجلس فيه في قبة محاذية للفرقة. اســـتمعت إلى الأناشـــيد والتراتيل. تنفست طويلا، لكن دون جدوى، لم يستسلم القلق، لم يتزحزح.

اســـتقلت ســـيارتها ثانية، وجدت موقفا أمام منزلها، نزعت الاســـم من علـــى صندوق البريـــد، صعدت إلى الطابـــق الثاني وملأت كيسا آخر.

ذلك المساء توقفت عن البكاء.

***

اجتاحتها حالة من انعدام الوزن.

حالة غريبة يبتعد فيها الجســـم عن نفســـه. حيث يجف كل شيء في العالم الداخلي. حيث يبدأ الصحو أو الفراغ على الأقل في التحرك في فضاء الرأس.

حيث تسبب المعاناة إن بقيت في ألم أقل.

حيث تحدث المعاناة الألم من مكان أبعد من الجسم نفسه.

***

سارت بمحاذاة الشارع المظلم في الدائرة السادسة. الرصيف ضيق جدا. كانت متزينة بإتقان. طويلة وجميلة، ممشوقة القوام وشعرها معقوص. كانت ترتدي فستان سهرة رماديا. التحقت بتوماس في حفل المعرض. غادرا حوالي التاسعة.

تواجدا في الليل الأكثر ظلمة.

الزقاق الضيق من جديد.

- هل تعتقدين أنه يوجد مطعم قريب من هنا؟

- لا أعرف شيئا! ركنت سيارتي في ساحة السوق الصغير، أمام المسبح.

- أنا جائع جدا. ألست جائعة؟

- ليس تماما.

- يجب أن نتعشى هنا قبل أن ندخل.

أمسكها من ذراعها. قال لها:

- أود أن نعود كما كنا من قبل.

لم تجب. سار بتأن. ضمها إليه.

- أحبك.

- انظر هناك!

- بل انظري إلي.

نظرت إليه.

- أنا أتألم.

كان بائساً، تمتمت:

- فلنذهب لنأكل ما دمت جائعا.

***

اتصلت الوكالة في نهاية الصباح. كان الجواب نعم. البروكسولي كان قد قدم الدفعة الأولى. طلبت آن من الوكالة أن تهتم بكل شيء. حضروا الأوراق. اتصلوا بالموثق.

- لن تضطروا للقاء المشترين الجدد قبل التوقيع.

- متى؟

- فلنقل خلال ثلاثة أشهر.

- وماذا عن الوعد بالبيع؟

- إن وجودكم، فيما يخص العقد الابتدائي، ليس ضروريا.

- متى سيكون ذلك.

- في الحال. في بداية فبراير. كما أظن.

السابع من فبراير إن كان ممكنا.

سأل مساعدته.

- أعرف أنهم لا يستطيعون الحضور إلا في نهاية أسبوع.

اتصلت المساعدة ثانية.

كانوا موافقين على السابع من فبراير.

وقد تسببت سرعة أو اقتراب التوقيع على العقد الابتدائي في قلب كيانها. أصبح القلق مباغتا وتاما. كانت قد توقعت أن الأمر سيأخذ أشهرا من الأخذ والرد. قالت في نفسها: « السابع فأل حسن. فبراير يحاذي الربيع.»

***

- سأغادر باريس.

- أين ستستقرون؟

- لم أقرر بعد.
شرحت لها المعنية طريقة الحصول على صندوق بريدي.
كتبت وكالة باسم جورج روهلينجر.
اشترت شيكات سفر.

***

اتصلت ببائـــع التحف من مقهى بجانـــب البريد. وافقت على عرضه شـــريطة أن يجد لها بائع أثاث مســـتعمل من أجل الأثاث المتبقي وأن يتم ذلك في الأسبوع الأول من فبراير. اتصلت بالوكالة.
- بالنسبة إلى الأثاث سأتولى أمره بنفسي.
اتصل بها بائع الأثاث المستعمل في الحال. أشار عليها بأحد أصدقائه الذي ســـيتكفل بالنقل. اتفقا علـــى الاثنين الثاني من فبراير أو الثلاثاء الثالث.

***

لم تتناول الغداء.
كان المرآب بعيدا ، في بانيولي.
أخبرتهم أنها تنوي بيع سيارتها وأنها تنوي إتمام الأمر بسرعة.
- لماذا؟
- وجدت عملا بالولايات المتحدة.
- يا له من حظ!
- لا أعرف إن كنت محظوظة.

***

ســـيقومون بتحضير كل الأوراق. سيســـمحون لها باستعمال ســـيارتها أو ســـيؤجرون لها سيارة أخرى تســـتعملها إلى حدود

السبت السابع من فبراير صباحا. سيتصلون بها.

***

ذهبت مرة أخرى إلى وكالة بنكها الباريسية. سحبت مرة أخرى سبعة آلاف يورو نقدا. تركت ما يكفي لتأدية الضرائب الموالية، التأدية المسبقة، الحسابات الأوتوماتيكية. وطلبت إعداد شيك بنكي بالمبلغ المتبقي.

***

كانت الساعة الرابعة. اتصلت بجورج على هاتفه المحمول. سألته إن كان باستطاعته استضافتها خلال نهاية الأسبوع. أحسّ بفرح غامر. هذا على الأقل ما أخبرها به.

اشترت تذكرة إلى تيليي - سور - يون، عندما وصلت مبكرا إلى محطة ليون، استقلّت القطار نحو ديجون. نزلت في محطة سانس واستقلت سيارة أجرة.

فاجأته بالاتصال به على محموله ليفتح لها الباب عندما وصلت أمام المنزل. (لم يكن جورج يجيب أبدا على جرس الباب).

ذهبا إلى المطعم الذي يوجد على المايل. كرر جورج أنه طائر من الفرح. تحدثت عن توماس. قال لها:

- أنت بطلة من الزمن القديم.

استأنفت:

- جورج، أود أن أطرح عليك أربعة أسئلة.

ترددت.

- . فجأة أحسست أنه من الغرابة أن أكون بجانبك!

- كما كنا ونحن صغار. جنبا إلى جنب في القسم، مع الألواح والطبشورة!

- شيء غريب أن أكون هنا وأتحدث إليك بصيغة المفرد.

- توقفي! تحدثنا دوما من دون تكليف.

- لقاء غريب!

- كنت في فترة حداد.

- جورج، أنـــا أيضا مقبلة على فترة مرعبـــة أو رائعة... من الوداع.

- انسي الوداع! فلنبق في جوّ اللقاء! احكي! ماذا كنت تودين قوله؟ سأتناول طبق حَمَام بالفول. على أيّ، من يُقدّم الفول في بروتاني؟

- أردت أن تكـــون لماما. فعلت كل شـــيء ليكون الأمر كذلك. فعلت كل شيء لتكون مسرورة. لا أعرف كيف تصرفت. لكني في المرتين أخطأت الهدف.

- هل تريدين القول إنك توجت ملكة مرتين؟

- أجل.

- وتدعـــين أنك في المرتين كنت تعرفين أين توجد حبة الفول وأنك فعلت كل ما في وسعك لتجدها أمك في حصتها؟

- أجل.

رفعت آن عينيها ولاحظت أنه لا يصدقها.

تذوقا الطبق الأول في صمت. شربت قليلا من النبيذ. قالت أخيرا:

- جورج، أود أن أطرح عليك أربعة أسئلة. أربعة أسئلة ستجيب عنها بنعم أو لا، بدون حرج.

- ولماذا سأحس بالحرج؟
- أولا، هل تقبل أن أضع نقودا في حسابك؟
- لا، لا أظن أني سـأحبذ الأمر. لن أقبله أبدا. لسـت غنيا، لكني أتدبر أموري جيدا.
- ليس من أجل مساعدتك أو إهانتك. أحتاج حسابا غير مرئي.
- لكن لي كرامتي.
- لم أحسن التصرف.
- آن إليـان، عليك أن تقبلي هذا الأمـر، المتمثل في زميلين يلتقيان. يدعو أحدهما الآخر إلى المطعم. لن يسارعا إلى إفساد كل شيء بنقود في حسابيهما المصرفيين.
- دع الأمر. انس. السـؤال الثاني: أود أن أشتري منك البيت الصغير المهجور الذي يوجد بحديقتك جهة اليمين.
- بيت اللبلاب؟
- أجل.
- تريدينه؟
- أجل.
- لماذا؟
- سأخبرك لماذا. هو نوع من الغومبوندورف.
- ماذا يعني غومبوندورف؟
- غومبونـدورف. كان العجـوز هايـدن يسـمي بيتـه فـي غامبوندورف كوخه. كان يقول إن روحه بكاملها توجد في الكوخ. وأنه بمجرد أن يلج إليه يكون متأكدا أنه سيكتب. على أي، هناك، قرب فيينا، كتب أجمل أعماله.

- لكن خذيه، آن! خذيه! هو لك. لست محتاجا لبيعك إياه، ولست محتاجة لشرائه لتجعليه كوخا لك وتُؤلفي فيه.

- اسمع ما أقوله لك. في البداية، أقسم لي بحفظ السر.

أقسم على نحو مشهود.

طلبت منه الشرب لإلزامه بالقسم الذي أداه.

- انظر في عيني!

أحضر الخادم البار (أبواق الموت) والحمامة الكبيرة المبقورة (حبات الفول)

- سأبيع منزل باريس.

- يا إلهي! كل هذا بسبب....

- لا تعلق!

- لن أعلق، لكن هل أنت متأكدة أنك لن ترتكبي حماقة بسبب ما تصورت أنك رأيته في زقاق بشوازي لو روا تعلوك شجرة رند ضخمة؟

- أعفني من تعليقاتك. لا تعليقات ولا أحكام. لا أريد منك سوى الصداقة وحفظ السر.

- لا تنزعجي.

- بدأ الأمر. سيتم البيع. سيوقع زوج من بروكسيل وعقد البيع الابتدائي السبت السابع من فبراير.

استمع إليها بتعجب، ثم فجأة، بقلق.

- هل يعلم توماس؟

- لا. أريد أن أختفي آنيا. ويجب ألا يعرف. لا أحد من أقاربي يشك في وجودك. حتى ماما تجهل ذلك.

- ظهوري من جديد؟
- أجل. سأجد نفسي أمتلك الكثير من المال ولا أريد عنوانا.
انتظري! ستهجرينني أنا أيضا؟
- أجل.
- آن، أنا حقا مصدوم.
- سأعود.
- والغومبوندورف الجديد؟
- فيما بعد. سأعود فيما بعد.
- إذن تمحين كل شيء. تخبئين نقودك. ربما بدلت اسمك؟
- لم لا؟
- كنت على حق قبل قليل. أنت أسوأ من حمقاء. ستصبحين شخصية من شخوص الحكايا.
- هل فهمت لماذا أطمع في ضيافة حسابك المصرفي، جورج؟
- فهمت.
يجب أيضا تحضير بطاقة اعتماد على هذا الحساب، جورج. ممكن؟
صمت. شرب. نظر إليها. قال:
- نستطيع دمج الحسابين؟
- لا، سيظهر اسمي.
- تريدين توكيلا فقط ؟
- أجل.
ذهبا في اليوم التالي إلى وكالة بنك جورج في أوكسير. كانت الوكالة تعمل السبت إلى الرابعة بعد الزوال. بعد أن قاما بملء

الأوراق وتوقيعهـــا، ذهب جورج للتســـوق وذهبـــت آن إلى وكالة أســـفار توجد بالقرب من المكان. كانت قد غذت منذ فترة طويلة فكرة العيش بشـــقة بنيويورك. لكن الشاب الذي كان أمام المكتب أفهمهـــا أنه لم يعد في إمكان الأوروبيـــين الذهاب إلى الولايات المتحدة بحرية. كانت ملفات المســـافرين الشخصية تقدم بتذلل من طرف كل شركات الاتحاد الأوروبي الجوية لواشنطن.

التقـــت آن بجورج من أجل الغداء في ســـاحة أوكســـير. كان مغتما (رغم أنه تناول الطعام معها).

- تغادرين بمجرد أن دخلت حياتي.

هزت كتفيها. شرحت له ما قاله صبي وكالة الأسفار.

قال جورج:

- للحفـــاظ على القليل من الســـرية لا يكفـــي أن يقول المرء «لست سوى إله من خشب».

استمتعا بوضع لائحة البلدان التي تراقب فيها التحركات.

كان يجب تفادي كل الوكالات الأمريكية أو الوكالات المرتبطة بها بســـبب ما أســـماه موظف الوكالة بـ Passenger Name Record.

أضف إلـــى ذلك أن جورج كان قد قرأ في إحدى المجلات أن تحديد مكالمة الهواتف المحمولة أصبح خدمة.

قال:

- إذن لا هـاتف نقالا.

- ولا عنوان إلكتروني. لا يجب الاحتفاظ بالحاسوب.

- لا طائرة خارج المنطقة الأوروبية.

- لا بطاقة زرقاء.

- الخلاصة: يجب أن تجدي وجهة في حوض المتوسط أو في آسيا.

رجعا إلى الوكالة لإلغاء طلب البطاقة. الشيكات كافية. لا تدل الشيكات إلا على المصدر الذي نرغب في وضعه عليها. ثم اشترت شيكات سفر أخرى.

***

بعد عودتها من أوكسير اتصلت بمقاولة البناء والصباغة في فيلنُّوف سور يون.

المقاول:

- أستطيع الحضور غدا، إن أردت.

- لكن غدا الأحد...

- لا عمل لدي في هذا الوقت، يناير شهر أجوف. بعد الأعياد لا يكون لدى الناس مال.

- ينتظر الناس الربيع.

قال المقاول:

- مثل الرسامين.

قالت آن:

- مثل الزهور.

الفصل الثامن

العشـــرون من يناير بدأ العد التنازلي ينسـل ويتردد. من فرط ما خصصـت وقتها للترتيبات الخفية، مـن فرط ما فكرت طويلا في الفراغ، اجتاحتهـا موجة من الضيق تدريجيا. صعب أن نفترق عمـا نحب. والأكثر إشـكالا هو أن نفترق عـن ذواتنا أو عن صور ذواتنـا. خلال بضعة أيام، في تيلي، عـاود جـورج الأمل. قـال إنه لا يزال بإمكانها أن توقف كل شيء. أدركت آن هيدن أن الحياة التي تعيشها في باريس، وإن كانت كاذبة، لم تكن سيئة جدا. لم تعد ترى توماس تقريبا. سـتحصل على كوخ. غامبوندورف مجهز ومصبوغ في تيلي متى رغبت في ذلك. كانت محقة في الاستغناء عن عملها في الدائرة الثامنة. هل ستكون الحياة التي ستكتشفها أكثر تركيزا، أكثر ملاءمة للإبداع؟ هل تشكل الوحدة التامة مادة شهية؟

وأين يمكن أن تغترب؟

لا تستطيع الذهاب عند وارن في سيدني.

لا تستطيع الاستقرار في نيويورك كما حلمت بذلك دوما.

بدأ الخوف يجتاحها.

كبر القلق، امتزج بالدوار.

ذهبـت إلى السـينما. كان فيلمـا جميلا تـدور أحداثه في شنغهاي حيث يهيم كل شيء. لكن حيث يهيم كل شيء في الوقت.

اتخذت قرار البقاء في فرنسا، في باريس.

- إن لـم تكن متابعة العيش مع تومـاس. هذا لن يمنعها من قطع العلاقة.

أراحها هذا القرار.

***

عادت إلى بيتها ماشية، صافية الذهن. تمشت كثيرا في بقايا الأوراق الميتة، في صفائح الصقيع، في الليل الذي حل.

نزلت إلى القبو.

اختارت قنينة من شراب بورغون.

اختارت من أجل الاحتفال بقرارها شيئا رفيعا أخذته إلى الصالون، نزعت غطاءه، تركته في الهواء، كانت رائحته رائعة.

اجتاحها إحساس بالحزن، امتزج بالسلم الذي كانت قد استعادته.

شربت جرعة، ثم حملت كأسها. وضعتها على البيانو.

في المساء، عندما دخل توماس، كانت لا تزال أمام البيانو. كان رقيقا ولطيفا. طبع قبلة على شعرها بينما كانت تتابع القراءة، والكشف، وكتابة الملاحظات، والتلخيص. سمعته وراءها؛ أحضر كأس شراب؛ جلس في الخلف، على الأريكة السوداء الكبيرة.

استمرت في قراءة قطعة موسيقية عثرت عليها في المكتبة البلدية كانت تحاول إعادة كتابتها.

لم تكن تألف في الأغلب.

كانت تبسط إلى حد العوز القطع التي تعثر عليها أو ذكرياتها. تلخص، تزيل الزوائد، تنحت، تشذب، تصغر، توجز إلى أن تنفعل بالنتيجة التي حصلت عليها.

عندما أصبح ما حصلت عليه مؤثرا، توقفت. كانت جد منفعلة.

عزفت كل ما لخصته، استدارت.
كان نائما على الأريكة السوداء.
حملت كأسها، مرت أمامه، دخلت المطبخ، وأكلت واقفة، أنهت قنينة الشراب الرائع. عندما مرت أمام باب الصالون: كان لا يزال نائمـا. صعدت. أخذت حبة لكسـميل من خزانـة الحمام. لكنها أخـذت تضحك وحدها. لم تبلعها. كررت: «وداعا». انحنت ورمت حبة اللكسـميل في صندوق القمامـة المعدني. من الآن فصاعدا كانت واثقة من نفسها. كانت مغتبطة، كانت تعرف أنها سترحل.

***

فتحت عينيها، نظرت إلى أغصان شـجرة الـدردار العارية، التي تلمس زجاج الكوة، تلمع تحت قطرات الماء.
اسـتيقظت فـي الحالة الذهنية نفسـها التي نامـت عليها. فكرت: «لا بد أن قراري ممتاز، نمت نوما عميقا. فارقني القلق. لم أر أي حلم».
الجمعة الثالث والعشرون من يناير باعت آلات البيانو الثلاث. باعتها بثمن جيد. حتى أنها باعت السـتينغرايبر أكثر من ثمنه. كانـت معروفة رغم صعوبة الأعمـال التي تؤلفها. لم تحس بأي شيء. تمت الصفقة نقدا. كان المبلغ وفيرا.
لن يتم نقل الآلات الثلاث حتى الخامس من فبراير.
ابتعد التخلي.
كلما كان مُبيَّتا، فإن الإحساس بالغضب يملأ الصدر بالطاقة، وينشـط الدماغ، ويدعم المشـاريع التي تصوغهـا الروح. ويعزز النظرة. ويدعم الساعات. ويثير الوقت.

خلال بضعة أيام نحفت كثيرا.
كانت تموج في الجينز الأسود.
عاودت الاتصال ببائع التحف، وتاجر المتاع المستعمل وناقل الأثاث.
اتفقوا، جميعا، على تاريخ الثالث من فبراير.
ذهبت إلى إدارة الضرائب، لم تقل إنها مسافرة، لم تذكر علبة الرسائل، حولت الأقساط الشهرية إلى الحساب البنكي القديم.

***

عندما نزلت إلى الصالون، كانت رائحة السيجار نفاذة حتى أنها فتحت النوافذ على مصاريعها.
لم تعد تحتمل وجود توماس. روائح، رجوع، اهتمام، حضور متسول، ضجيج، غسيل متسخ، اتصالات هاتفية، كل شيء كان يغيظها.
اتصلت بالبروتون. لم تقل شيئا لوالدتها. استسلمت خلال ساعة للاستماع لكل شكاواها.
لجورج:
- أستطيع الحضور؟
- تستطيعين.
وهي ذاهبة إلى تيلي عبر القطار، اتصلت بتوماس:
- أنا في القطار إلى رين. سأزور ماما. اتصلت بي فيري. هي ليست على ما يرام.
أغلقت هاتفها المحمول. ظلت جالسة لمدة طويلة. سحبت حذاءها على أرضية القطار. وضعت أطراف أصابعها على

الكرسي الأزرق قبالتها.
سحبت أسفل تنورتها إلى وجهها لتمسح عينيها.
وغفت.

***

أعطت جورج المال الذي حصلت عليه من بيع آلات البيانو.
كان مرعوبا.
- سآخذه في الحين إلى وكالة أوكسير.
- أعتقد أننا يجب أن نحتفظ به هنا. سأحتاج إليه من أجل الرحيل.
أسرت له بما تبيته. ومع ذلك أخذ جورج الشاحنة الرمادية وذهب ليضع جزءا من النقود في صندوق بأوكسير.
أشغال المنزل الصغير كانت تسير على الوتيرة التي وعد بها المقاول.
سارا بمحاذاة الأرض الخضراء ومزرعة الورد. ذهبا ليشاهدا الحمام الصغير.
بالنسبة إلى باقي البيت لم يكن سوى جبس وأنقاض.
طريقة العمل التي تصورها العمال كانت معقدة، لتفادي إزعاج جورج، كانوا يمرون عبر النهر. يضعون أدواتهم في مركب للصيادين.
عندما حل المساء قال لها جورج: سأصلح البيانو. أود لو تلقين نظرة. أود أن تعزفي مقطوعة الآن.
- ماذا؟
- شيء مثل ما كنت تعزفينه في الماضي عندما كانت والدتك تسمح لنا بالنوم عند فيري.

- لا. هذا جنون.

- إذن شـــيء ترغبين في عزفـــه في هذه اللحظة من حياتك. أعني ما ترغبين فيه، في قرارة نفسك.

- في هذه الحالة عندي شـــيء، طبعا. عندي شيء يسكنني. أنت مثل فيري!

- تذكري أن فيري كانت صديقة جيدة بالنسبة إليّ أكثر مما كانت بالنسبة إليك.

لم يستغرق الأمر وقتا طويلا. كان بيانو من نوع إيرارد ضيقا جدا، شاحبا، أصفر، حساس الملمس.

أصدر البيانو صوتا يشبه صوت آلة قديمة.

عندمـــا انتهت من العزف، لم يجـــرؤ أحدهما على النظر في وجه الآخر. كانت الدموع تغطي رموشيهما.

***

الأحـــد، بينما كان جورج يوصلها في الشـــاحنة الســـيتروين العتيقة إلى المحطة، قالت له:

- هل تستطيع البقاء في شوازي إلى نهاية الأسبوع؟

- إلى حدود السبت، السبت يجب أن أكون في تيلي، لماذا؟

- لا شيء. ستظل في شوازي إلى حدود السبت ؟

- أجـــل. إذا أردت. علـــى أي هـــذا ما كنت أنـــوي فعله. هل أستطيع معرفة المزيد.

- لا. لا تقلق.

- لست قلقا.

توقف العمال عن المرور عبر الضفة. جاءت من باريس مرتين.

تسلمت السرير والأثاث الذي اشترته بالقرب من سانس. لم تكن تستسيغ ذوق جورج. فضلت تولي كل شيء بنفسها. استسلم المقاول طواعية للتحدي الصغير الذي اقترحته (كان الشتاء غريبا ودافئا؛ كل شيء سيجف لتوه؛ على الأقل كان بالقرب من الماء؛ كانت تدفع الأجرة يدا بيد). جعلت من الغرفة التي تطل على الحديقة مطبخا (ثلاجة صغيرة تعلوها صفيحة كهربائية، مائدة مستديرة بيضاء مع كرسيين من تلك التي توضع في الحدائق).

في الغرفة التي تطل على اليون، صالون أبيض.

في الطابق، غرفة نوم متقشفة إن لم تكن فارغة.

سرير صغير بغطاء أبيض تغطيه وسائد بيضاء بين حائطين تغطيهما رفوف بيضاء من أجل القطع الموسيقية والكتب.

دورة مياه صغيرة على يمين الدرج.



الفصل التاسع

- كان الليل دامسا. وصلت لتوها إلى المحطة. على الرصيف كانت الرياح تهب بشكل دائري. احتمت تحت الكنة. تحت الكنة كانت المصابيح الكهربائية المضيئة والعارية قد أخذت في التراقص بشكل خطير. رفعت ياقة سترتها الجلدية. غادرت الكنة. ذرعت الرصيف ذهابا وإيابا إلى أن وصل القطار. بعد أن صعدت إلى القطار، ووجدت مكانا تجلس فيه، ودافئا، مد لها شاب مغربي، أصلع الرأس، يلبس ملابس رياضية، علبة شوكولاتة.

ألحَّ.

أخذت واحدة.

قال لها:

- أرغب في التحدث.

أجابته:

- وإذا لم تكن لديّ رغبة في الاستماع؟

قال، وهو يرفع من صوته:

- أرغب في التحدث.

كان متوعدا أو عصبيا.

- أقبل شريطة أن أغلق عيني.

- موافق.

وضعت رأسها على المتكأ وصدمته.

قالت:

- تفضل، أنا أستمع.

- في باريس سوف ألتقي...

كانت قصة عقاب سوداء. فتحت عينيها شيئا فشيئا. فهمت شيئا.

***

صباح الخميس التاسع والعشرين، بعد أن وصلت باكرا من قطار سانس، اضطرت إلى أن تنتظر بصبر خروج توماس لكي تدخل البيت. استغلت تسكعها في ساعات الصباح الأولى لتشتري أكياس قمامة.

بعد رجوعها إلى البيت، اتصلوا بها من مرآب البانيولي. أخذوا سيارتها. وأعاروها رونو فضاء بيضاء. أحست ببعض الحرج لقيادة السيارة المرتفعة وركنها في الدرب.

اتصلت بالإنقاذ المسيحي وحصلت على موعد للإثنين الثاني من فبراير بعد الزوال.

بدأت من فوق. بدأت بإفراغ جيوب كل السترات، والمعاطف الواقية، والجاكيتات، والمعاطف حتى لا تبقى فيها أشياء شخصية. زارت الغرف الواحدة تلو الأخرى، فتحت الأدراج، خزانات الثياب، وضعت كل شيء على الأرض. استغرقت ساعتين من الزمن. ذهبت لتناول الغداء.

بعد الغداء فتحت أكياسا أخرى من تلك التي اشترتها في الصباح.

أدخلت فيها بعناية كل ما استطاعت أن تمنحه.

لم يكن هناك الكثير مما يخص توماس: معطف شتاء، قبعة

بحرية زرقاء. وشــاحات من الصوف، سترة من الجلد، قمصان وملابــس داخلية، جاكيتان، بذلتان، تركتها في غرفة الثياب، في الصوان، في دولاب غرفة النوم حيث ينام وحده.

فيما يخصها، كانت قد تصورت أنها لن تحتفظ بشيء. لكنها وضعت خمس صور من تلك التي كانت في المكتب الأســطواني، قميصان من الحرير، ســروال رمادي من الكتان، ســروال جينز مهترئ، حذاء رياضي أســود. أنزلت حقيبة وضعت فيها أغطية وألحفة من أجل السرير المتقشــف في بيت اللبلاب ذي القارب الأسود، أخذت وسائد، ومخدات حديثة، غطاء سرير من القطن الأبيض، طنجرتان، مقلاتان، ستة صحون، ست كؤوس، آلة قهوة إيطاليــة قديمة. لم تجد صعوبة في إدخال حقيبتها في الفضاء الأبيــض. لم تحتج إلى فتح البــاب الخلفي. التحقت بالضواحي وقصدت تيلي عبر الطريق السيار A5. لم تجد جورج في اليون. كان قــد تم وضع الطبقة الأولى من الصباغة. وكان هناك ثلاثة عمال يقتسمون الرتوش في الداخل، وطبقة الصباغة الثانية في الخارج. اتصلت بجورج روهل. هو نفســه كان يفرغ بيت السيدة روهلينغر في شــوازي. كان يتهيأ بقلق لملء الشــاحنة الأولى من الأثاث.

***

لم يســتطع توماس فهم شيء مما يعيشــه. كان قلقا. يتصل كثيرا بآن، يترك رســائل صوتيــة طويلة على الهاتف. لم تكن آن تساعده، لم تكن تجيبه. ترفض تناول العشاء معه. ذات يوم ظهر فجأة وسط الزوال، كانت جالسة إلى البيانو.

أمسك يديها.

- سنوضح كل شيء. إذا كنت قد....

لكن آن نهضت.

- لا أود التحدث عن هذا.

- بلى، يجب.

- لا.

- إذن نستطيع أن نجد وسيلة أخرى. أستطيع الحصول على عنوان محلل نفســاني ليساعدك على الكلام. أعرف أن والدتك ليســت على ما يرام. اســتوعبت هذا المعطى. ســنتريث. يوجد أيضا علاج نفســاني للأزواج. نحن منهكان من التعب. يجب أن نسافر في عطلة. سريعا. يمكن أن...

- توماس، أظن أنك لا تفهم أن كل شيء قد انتهى.

انقبض وجهه. ومع ذلك أضافت بوضوح:

- لا أريد رؤيتك.

لم ينظر إليها. لم يجبها. لم يشــأ أن يكون قد سمع الكلمات التي نطقتها. كانت يداه محمومتين. بحث عن شيء يقوله. تاه في الصالون.

- على أي سنفترق الأسبوع المقبل بما أني سأذهب إلى لندن. ســنتحدث عن هذا عند عودتي. سنســافر في نهاية الأســبوع. سنتحدث بذهن خال، بهدوء. سنتناول كل شيء بطريقة عقلانية. كل هذا غير منطقي....

تركته يتحدث. لم تستمع له. وكان من المفروض أن يوقع على العقد الابتدائي في يوم الســبت السابع. قدرت أنه يجب أن تمر ثلاثة أشهر قبل أن يتم البيع. ذهبت إلى مدينة أوكسير مع جورج

وحجـــزت أمامه، في وكالة الأســـفار، تذكرة إلـــى مراكش. كتب جورج الشـــيك ووقعه. قالت لجورج إنها ستحتفظ بمحمولها إلى أن تصل مراكش. حيث ستشـــتري في الســـوق محمولا بالتعبئة، ســـتحرره وتخفي الرقم. ثم من مراكش ستنطلق نحو الصحراء، وتذهب إلى الأطلس. ليس المُهِمّ السفر في حد ذاته، وليس مُهِمّا القوافل الأركيولوجية، وليس مُهمّا المجموعة التي ستكون خاضعة لهـــا، إذا كان الوصول إليها مســـتحيلا في الواحات القصية في شـــمال أفريقيا. ليـــس من حق أحد أن يعرف عنها شـــيئا. هذا الأمر ســـيكون زمنا آخر. إن هذا الزمن يمكن أن تعيشـــه امرأة أخرى. ويمكن أن يحدث في عالَم آخَر. ويفتح حياة أخرى.

أصبحت تقود ســـيارة رونو إســـباس مـــن دون خجل. مجرد القيـــادة على الطريق الســـريع A5 يحرر ذهنهـــا، يعوّدها على القرار الذي أخذته، ويساعدها على التعود على الحيل الصغيرة والأكاذيب التي أصبحت تزرعها في الطريق. كان جورج ســـعيدا جدا لســـرعة تقدم الأشغال وعدم اضطراره إلى تحمل مساوئها أو تولي أمر مراقبتها.

ذات يوم بعد الزوال، بينما كانت خارجة من مطعم في شانغي، اتصل بها توماس على هاتفها النقال:

- هل هاتف البيت معطّل؟
- آه، حسن.
- لا نسمع شيئا، الخط مقطوع.
- لا تقلق، توماس. سأتصل غدا صباحا بفرانس تيليكوم.

مثلت دور المندهشة. كانت هي من أمر بقطع الهاتف.



الفصل العاشر

رجعت إلى باريس يوم الثلاثين. تعشيا في المطبخ، سريعا، من دون تبادل كلمة.

الواحــد والثلاثون من يناير ســافر تومــاس إلى لندن لمدة أسبوع. عندما ســمعت في الصباح الباكر، في الظلام صوت انغلاق الباب، استمعت للبيت الصامت. ظلت في سرير الطابق الثاني فترة طويلة. زارت ذهنيا كل الأيام والأمســيات الآتية. كان الأســبوع الذي ســيكلفها كثيرا من الألم والذي سيتطلب منها كثيرا من القوة. بدأت تحس مســبقا بمجهود الأســبوع المقبل.

ثــم نهضت. نزلت إلى الطابــق الأول. أخذت أغطية جديدة، غيرت أغطية الســرير الكبير. نزلت إلى المطبخ لتحضر القهوة. صعدت إلى الغرفة بفنجان القهوة.

في الحمــام، رأت على الطاولة الزجاجيــة أدوات الحلاقة، غطاء المشط؛ أخذتها ووضعتها في صندوق القمامة.

-«مكان نظيف»، قالت في نفسها.

استلقت على ســريرها الحقيقي، أخذت فنجان القهوة على الطاولة قرب السرير واســتغرقت في قراءة الكتاب الذي بدأته في اليوم السابق.

استعادت بسرور غرفتها، النافذة التي تختبئ، كل فصل ربيع، في أوراق الدردار الكثيفة.

***

كانت تنظر إلى السماء فوق أغصان الدردار العارية وهي متكئة على الوسائد النظيفة. تأملت أطراف السماء المضيئة بين الأغصان. لم تشعر برغبة في النهوض. لم تمتلك الشجاعة لتحضير الأغراض القليلة التي عزمت على أخذها. كان أول نهاية أسبوع لم تنوِ الذهاب فيها إلى الإيون. ظلت مستلقية إلى أن حل الليل.

عاد القلق مع الظلام.

والرغبة في الهروب عادت مع رفيقها.

كانت قد أصبحت توأما للقلق الذي تحس به كل يوم في الوقت الذي يذوب فيه ضوء الشمس في الليل.

ظلت طوال الليل، واقفة، بقميص الليل القطني، ترتب، وتعزل الثياب، وتملأ الأكياس الأخيرة، وتملأ كل الحقائب المتوافرة. عادت إلى سريرها لتسقط من التعب وتنام دفعة واحدة . كانت الساعة الخامسة صباحا. كل شيء كان جاهزا.

***

اتصلت بجورج:

- أنا مكهربة. مثل كرة عاصفة.

***

في اليوم الثاني أضرمت نارا كبيرة في الحديقة. صعدت إلى فوق وأخذت كل ما كان شخصيا جدا، ففككت الإطارات، ورمت كل شيء لم ترغب في رؤيته يباع في أسواق الأثاث المستعمل أو في بورت سانت . وان.

أحست بمتعة وهي ترى كل الأوراق الشخصية تختفي،

الفواتيـــر، دفاتـــر الشـــيكات القديمة، القســـيمات، إشـــعارات الضرائب. استغرق كل هذا وقتا طويلا. استمر يوما.

مر الرجل العجوز الذي كان يرافق ســـيدة الإنقاذ المســـيحي عشـــرين مرة أمام النار. كان يحمل أكياس الثياب التي حضّرتها والحقائب التي أغلقتها. وضعها في شاحنته.

قالت لنفسها فجأة: «لم أعد أمتلك بيتا».

البيـــت (المكان الذي تغفر فيـــه أخطاؤنا، حيث يقبل ضعفنا) كان يحترق وسط الحديقة.

أحست فجأة بعد الزوال الفارغ برغبة في زيارة متحف اللوفر من أجل متعة التيه وسط كثير من الجمال.

ذهبت إلى شارع راشيل، اشترت زهرة ياقوتية بيضاء، ودخلت مقبرة مونتمارت، ســـلكت طريق بيـــود، تبعت ممر الصليب جهة الشمال، توقفت أمام قبر شقيقها، وضعت الزهرة على الحجر.

وفـــق التقليد العائلـــي (والدتها كانت تتصرف بهذا الشـــكل، جدها لأمها أيضا، اضطر والدها إلى الاستســـلام لتلك القاعدة الخاصة، كانت قـــد رأت جدتها تتصرف بالطريقة نفســـها في شـــقة رين)، كان الوداع يتم على البيانو. لكل عائلة طقوسها غير الواضحـــة المعالـــم. توضع الحقائب الواحـــدة جنب الأخرى في المدخل، يوضع عليها المعطف. على المعطف القبعة، يجلس الفرد إلـــى البيانو، ويعزف قطعة بـــدل كلمات الوداع. لا يقبل. يفر من دون كلمة، في حين يكون المكان لا يزال يصدح بالموسيقى. أصبح عليها أن تعزف لحن الوداع في كل مكان.

رنة جرس، توقفت الموسيقى فجأة.

أحست بقلبها ينخلع.

اتكأت على خشب البيانو. نهضت من على كرسيها، اتجهت نحو المدخل بتمهل، فتحت الباب، نظرت عبر البوابة الحديد.

السمسار.

كان قد تلقى عرضا آخر أكثر أهمية (عرض بروكسيل كان لايزال ساريا) وصلت في الحال امرأة حامل ، تحمل رضيعا بين ذراعيها.

- كان عليك إعلامي.

- ظننت أن مساعدتي قد قامت بذلك.

- لا.

- هل يزعجك هذا حقا؟

- قليلا، يوجد كثير من الفوضى.

- لن ننظر.

- كل شيء متسخ.

قاما بالإلحاح.

سألت السيدة عن وقت إتمام البيع. لم تكن مستعجلة. كانت حاملا في طفل جديد. كان أمامهم كل الوقت اللازم. سيخصص الصيف للأشغال. الخريف للصباغة. بينما كانوا يزورون غرف البيت، كانت السيدة تكرر كل ما يدلي به السمسار، وكل ما تراه على مسامع زوجها في الهاتف النقال. في النهاية بعد أن رأت حالة الأثاث، أبدت الأم الشابة رغبتها في الاحتفاظ بالأسرة، وعدتها، والمطبخ، وطاولة كي الثياب، وآلة غسل الثياب.

- «يـــا إلهي، فات الوقـــت»، أجابت آن هيـــدن عندما عبرت السيدة عن رغبتها.

- لماذا؟

- سيأتي ناقل الأثاث غدا.

-

فـــي النهاية، فضلت آن الحفاظ على المشـــتري الأول، بالثمن المنخفض الذي اقترحه، وســـرعة البيع التي يفرضها. انصرفت ربة الأسرة غاضبة.

***

تفاءلت آن عندما رأت بشـــير خير وهـــي تنهض في الصباح التالي: نقار في الحديقة المجاورة، أتى يبرر تفضيلها لبروكسيل. كانـــت آن هيدن تعيش محاطة بالفأل. فأل حســـن في أغلبيته. كانـــت تحس مســـبقا عنـــدما يلوح فرح فـــي أفق اليوم الموالي. أو تستشعر حدوث شيء جميل في أحد الأماكن التي ستزورها. وبســـبب قابليتها للســـعادة كانت تتدخل في كل الساعات التالية لتجعل نبوءتها تتحقق.

في أغلب المرات عم الفرح.

وإن لم يحدث شيء، كانت تســـارع بالذهاب إلى المسبح عند الغروب.

التعب والجوع كانا كفيلين بخلق نشوة روحية تحقق تكهنها.

***



الفصل الحادي عشر

راقبت ناقلي الأثاث وهم ينصرفون. كانوا قد أنهوا عملهم؛ كنسوا؛ فرقت الإكراميات؛ جمعوا وزرات العمل، وعلب الكرتون، وصناديق المعدات؛ لبسوا جاكيتاتهم. كانت أمام نافذة المطبخ؛ جلست على حافة المغسلة. تناولت شرابا من القنينة لعدم وجود كؤوس. فتحت علبة فول سوداني كانت متبقية.

ثم أغلقت عينيها، أكلت من دون شهية.

لم يبق سوى آلات البيانو الثلاث في المنزل.

صاح الناقلون من الحديقة بكلمات الوداع.

أغلقوا البوابة.

نظرت من المكتب إلى آلتي البيانو المنتصبتين المسمرتين في الحائط المملوء بالعلامات.

هامت في غرف البيت وظهرها يتصبب عرقا. لم تكن تهجر رجلا فقط، بل عواطفها. كانت تهجر الطريقة التي عاشت بها عواطفها.

مستودع الأمتعة، ثم الفراغ، ثم الأوساخ التي أدخلها الناقلون تحولت خواء في جسمها.

انحسرت كل حياتها فجأة. في الحيطان المتسخة والمتقادمة. أمام الآلات التي تغطيها طبقة سوداء.

سبع عشرة سنة ثم سبع وأربعون سنة حاولت العودة إلى ابتلاعها. جلست أمام البيانو الكبير، الستينغرابر الموضوع في

الصالون. لم تعزف. نهضت وذهبت إلى ما كانت تسميه مكتبها وجلست أمام بيانو الدراسة الصغير. كان صغيرا يصدر صوتا جافا. أسوأ من آلة جورج في تيلي. عزفت. ارتجلت انطلاقا من لحن قديم كانت قد أعادت نشره عند رولاند. العزف كان منفذها الوحيد. ثم قالت في نفسها كل هذا غير مهم. حيثما ارتحلنا توجد آلات بيانو.

أكلت لبنا رائبا بالأناناس كان قد بقي في مكان الثلاجة، بقيت أيضا حبة بامبلوموس. شربت مزيدا من الشراب. اتصلت بجورج الذي كان في شوازي، استقلت الفضاء الأبيض لموافاته. نامت في سرير والدة جورج. لم يكن بيت إيفلين روهلينغر قد تخلص من أثاثه كما حاول جورج إيهامها. كان على جورج الذهاب إلى باريس في اليوم التالي. ناما مباشرة بعد العشاء. في الثامنة صباحا انطلقا نحو باريس. عرضت عليه رؤية قفارها، وغبارها.

رفض.

انتظر سيارة أجرة عند إشارة المرور، في زاوية ملتقى الطرق والشارع.

رفض دخول البيت.

كان البيت يمثل حياتها السابقة. ويفضل هو أن يظل جزءا من السر على أن يكون شاهدا على ما شكل حياتها مع توماس.

قال لها : هذا لا يهمني.

أشار يودعها باليد مثلما كان يفعل وهو طفل.

أوقفت آن السيارة أمام البوابة.

عندما بقيت وحدها نظفت البيت. ذهبت إلى البريد. اشترت طردين. مرت وهي راجعة على بائع الأقفال في الزاوية بين شارع البريد وشارعها. لم يكن موجودا.

سألت زوجته عن موعد عودته. لن يتأخر.

عندما عادت إلى بيتها، فحصت أوراق توماس (ضرائب، بنك، دفتر الجيش، بطاقة الناخب) كانت مندهشة لقلة الأشياء التي يحتفظ بها. طرد واحد يكفي.

عند الساعة العاشرة رن بائع الأقفال جرس الباب كما وعدت زوجته.

غيّر قفل الباب والبوابة.

- تفضلي سيدتي، القفلين القديمين والمفاتيح القديمة، لا تزال صالحة.

- احتفظ بها إذن.

تركها تسقط في محفظته.

- هل سترحلين؟

- أجل، سأرحل.

- هل ستبيعين البيت؟

- أجل.

- لماذا تغيرين الأقفال إذن؟

- سرقت مني نسخة البارحة.

- إلى أين ستذهبين؟

- سأعود عند والدتي في بروتاني.

- أنت على حق.

شكرته على تفهمه.

انتظرت في المنزل الفارغ تقريبا.

فـــي الثانية تم إغلاق عدّادي الغاز والكهرباء. أخبرها المكلف بأن المبلغ السابق سيخصم من حسابها.

- علـــى أي أنا أدفع بطريقة أوتوماتيكية. اعذرني إن لم أقدم لك قهوة، لا أمتلك آلة تحضير القهوة.

- ولا يوجد كهرباء.

ضحكا.

حظ ســـعيد، قال لها بطريقـــة غير مفهومـــة، وهو يمد يده نحوها.

هذه اليد الممدودة من دون سبب أسعدتها.

ذهبـــت لملء الطرد الثاني بالملابـــس التي تركها توماس. لكنه كان ثقيلا. تراجعت عن ذلـــك ورمت العلبة الفارغة والجاكيتات والبذل والقمصان في صندوق القمامة التابع للبلدية والذي يظل باستمرار في الشارع.

حررت عنوان مكتب توماس على الطرد الوحيد الذي حضّرته سابقا. لم تضع أي رسالة في العلبة.

ثم ذهبت آلات البيانو الثلاث. لم تستطع التحدث مع النقالين. كانت تتنفس بصعوبة. ظلت جالســـة في دفء الهواء، على الدرج تتأمل شـــجرة الـــدردار العارية في الحديقة الفارغة، وأشـــجار الورد الهزيلة بعد أن التحقوا بشاحنتهم الضخمة. عندما انتهت من تنظيف الأرضية للمرة الأخيرة اســـتقلت الفضاء الذي أعاره المرآب. وصلت إلى شوازي. أخذت حماما، شغلت آلة أخيرة.

ذهبا للعشـــاء بعيدا على ضفة نهر المارن. عند وصولهما كان الوقـــت لا يزال باكرا. طلـــب منهما مدير المطعـــم أن يعودا في الثامنة والنصف.

- هل ترغبان في شرب شيء وأنتما تنتظران؟

التفت جورج:

- هل ترغبين في الشراب؟

- لا أريد الشرب. الجو غريب.

- خانق.

- خانق ولزج، نتنفس بصعوبة.

قال صاحب المطعم:

- إنه التلوث.

قالت آن:

- أفضل البقاء في الخارج.

قال جورج لصاحب المطعم:

- سننتظر ونحن نتمشى على طول نهر المارن.

ثم انصرفا.

نظرا إلى النهر المقرف عند رجليهما.

كان نهر المارن نَتنا، مثل باريس.

روائح فظيعة، روائح البشـــرية، والصناعة، والغازول، والتبغ، والعطر، والعرق، والصابون تنتن الجو.

قالت آن، فجأة:

- هذا الشتاء الحار يقلقني جورج.

نظر إلى ساعته.

- تعالي.

سارا بسرعة. كانت تمسك ذراعه. وصلا إلى ساحة كبيرة تحيطها حيطان عارية. دفع باب كنيسة ضيقة.

على الأقل داخل الكنيسة كان مثلجا. كان الجناح يعبق برائحة البخور الممتزج بالرغوة. رائحة عفونة، غابة، فطر.

جلسا على كرسيين من القش. بعد وقت قصير جاء كاهن بلباس رياضي وطلب منهما الخروج لكونه مضطرا إلى إغلاق الكنيسة.

همهم جورج:

- تتحدث عن كنيسة، أنت تبالغ.
- إنها كنيسة صغيرة، لكنها كنيسة.
- كم من الوقت تظل الكنائس مفتوحة على أيامنا؟
- مدة الصلا فقط.

***

غادرا الكاهن، والكنيسة، والعفونة، والوحدة، والمكان، والمارن. وتعشيا.

فجأة انتاب جورج خوف مفاجئ.

- . ماذا لو لم يذهب توماس إلى لندن؟ ماذا لو جاء ليتعشى في المطعم نفسه؟

ضحكت آن:

- سيكون الأمر مضحكا. لكن ذلك لن يوقف ما هيأته بعناية.

مع ذلك ظل جورج قلقا. كلما فتح الباب مال بوجهه.

- لا تقلق إنه في لندن.

- ربما ليس في لندن.

قالت له:

- جورج، شكرا لك.

كانا قد انتهيا من تناول العشـــاء. تمشيا مرة أخرى بمحاذاة المارن. كانا ثملين. ســارا وأحدهما يمسـك بيـد الآخر. كانت هناك شـجرتا صفصـاف. ومجموعة من الــزوارق المجذافية البنيـة، تليها مجموعـة من زوارق الكاياك بكرسـي واحد من جميـع الألوان، متصلـة الواحد بالآخر. عانقهـا فجأة. قبلها بعصبية. دفعته.

قالت له :

- عِدْني ألاّ تُكرّر هذه الحماقة أبدا.

هز رأسه.

- إنها غلطة.

انقلب كيان جورج مما فعل.

- ستعودين برغم هذا؟

- طبعا.

قال جورج، وهو يتأوه:

- سنظل إذن في طفولتنا.

- هذا هو، هذا هو.

- ومحفظتنا!

ضحك، أمسك يدها ثانية.

- فلندخـل المدرسـة. نصطف في السـاحة. تصفق الأخت مارغريت. ندخل القاعة حيث الموقد.

غادر العريش يدا بيد. صعدا الشـــارع على قدميهما. اشتكى جورج.

- عندمـــا أفكر في أنك بعت كل شـــيء وأني لم أتخلص بعد من بيت ماما!

يجب القول إنك لم تخصص الوقت اللازم لذلك.

- آن، أنت المتخصصة، ألا ترغبين في الاهتمام بالأمر.

- لا.

- لست لطيفة.

- أقل ما يمكن أن يقال. أنا ســعيدة للذهاب إلى الشـــمس، والسماء الزرقاء.

- كنت أود اكتشاف الأطلس.

- لا تنهض غدا صباحا. سأغادر باكرا.

- وإفطارك؟

- سأتناوله في أحد المقاهي، عندما أصل باريس.

- أعلميني بمجرد أن تصلي إلى الصحراء. بمجرد أن تصعدي المرتفعات. في الواحات الأولى.

- في الواحات الأولى.

- اتصلي بي بمجرد أن تستطيعي.

قالت له:

- أعِدُك.

- أرسلي لي رقم هاتفك بمجرد أن يكون الأمر ممكنا.

قالت له:

- أعدك.

- في بداية الأسبوع.

قالت، مرددة:

- أعِدُك، أعِدُك.

***

انسلت في السادسة صباحا. لم توقظ جورج روهل. صعدت إلى السيارة. عندما وصلت باريس، أحست برغبة في سقي الحديقة للمرة الأخيرة. قامت بدورة بخرطومها الأصفر. لم يكن هناك شيء يستحق السقي. فقط وردتا شتاء. أخذتهما، وضعتهما في حقيبتها. أخذت الطرد البريدي. أغلقت باب المنزل والبوابة بالمفاتيح الجديدة. أعادت السيارة المعارة إلى مرآب بانيولي.

توقيع العقد الابتدائي كان سيتم في الثالثة في الدائرة الثامنة. كانت جائعة. اشترت جريدة. شربت فنجان قهوة. تناولت سلطة. وأخذت كأسا من الشراب. في الثالثة بعد الزوال مرت على مكتب البريد. انتظرت. عندما وصلت إلى الشباك سجلت الطرد الموجه إلى مكتب توماس. اتصلت بالوكالة العقارية في الدائرة الثامنة. نعم، وقعوا. أقفلت الخط. غادرت مكتب البريد. استقلت سيارة نحو محطة الشمال.

***

الفصل الثاني عشر

انتظرت أمام أحد الشبابيك. اشترت نقدا تذكرة إلى أنفير، مرفوقة بتذكرتها، صعدت آن هيدن إلى الطابق الثاني، حيث ينتظر المسافرون المتوجهون نحو لندن. جلست على أحد الكراسي ومزقت بتمهل بطاقتها الزرقاء وهي تثنيها وتعيد ثنيها. رمت قطعتين من ثلاث في قمامة أمام قطار اليوروستار[١].

***

نزلت وركبت في قطار تاليس[٢]. عندما انطلق، ذهبت إلى دورة المياه. رمت القطعة الباقية من بطاقتها من الكوة. اتصلت بجورج على هاتفه النقال.

- كل شيء على ما يرام. أنا في مطار رواسي. وسنقلع نحو المغرب.

- أقبلك.

فككت هاتفها المحمول. استمتعت برمي القطع عبر ثقوب دورة المياه على الطريق. نزلت في بروكسيل. أخذت مباشرة قطارا نحو لييج. فكرت في توماس، في قسمات وجهه عندما سيرجع إلى باريس. رأت ضيقه، تمنت معاناته. تصورته في هذه اللحظة في لندن وهو يعبر رصيفا على نهر التايمز. استمتعت مرات عديدة بالانطباع الذي سيحسه في اليوم التالي عندما سيحاول وضع مفتاح في قفل لن ينفتح. عندها سيخضع للأمر

«١» قطارات بين باريس ولندن.

«٢» قطارات بين باريس وأمستردام وتمر على بروكسيل.

الواقـع، ويفهم أن كل شـيء من حياته مـع آن هيدن عدا بعض الأوراق التي سيجدها بعد سـاعة على مكتبه قد اختفى، تبخر في الجو، ابتلعه فراغ أجوف من الفراغ.

نزلت فـي تينين (بلجيـكا)، حملت حقيبتها الجلديـة في اليد. اجتازت الساحة الفارغة. اتجهت نحو المتجر الكبير في زاوية الساحة. اشـترت حقيبة من النسيج الرمادي تعلق على الكتف. اشترت تنورة سوداء، وسـترة من الجلد الاصطناعي، وثوب سـباحة بني. غيرت كل ملابسـها في مخبأ القياس. اسـتقلت سيارة أجرة. صعدت إلى غرفة الفندق. نامت. في اليوم التالي، جمعت كل ملابسـها القديمة، وضعتها فـي الحقيبة القديمة. وضعت الثياب الجديدة في الحقيبة الرماديـة ورمت الحقيبة الجلدية في صنـدوق قمامة معدني كبير. اسـتقلت الحافلة نحو ماسـتريخت. اجتازت الحـدود في لاناكين. تناولت الطعام في دورين. كان ذلك يوم ثلاثاء المَرْفَع.

***

تتبعت نهـر الراين في حافلة ممتلئة بالسـياح الإنجليز. إنه أربعاء الرماد.

انتظـرت أن يغادر جميع المسـافرين الحافلة. نزلت من دون استعجال. ذهبت إلى أحد متاجر الأدوات الرياضية في فريبورغ. اشترت سـترة قطبية بيضاء، وقبعة، وقفازين من الفرو. أخذت أيضا حقيبة ظهر حمراء وضعت فيها كل أغراضها. كانت تدفع نقدا. أحست بالامتيازات التي توفرها منطقة اليورو.

ذهبت إلى المسبح، أمضت فترة طويلة في العوم. عندما لبست ثيابها في المقصورة، وضعت الملابس القديمة في حقيبة النسيج.

رمتها في القمامة، في الساحة الخلفية للمسبح.

كان شعرها لايزال مبللا عندما قصدت محل الحلاقة. اختارت قصة شعر قصيرة، صبغت شعرها بالأشقر مع خصلات بالأبيض.

نظرت إلى صورتها في مرآة الحلاق، توصلت إلى ملاحظة أن المرء عندما يغادر كل شيء فإنه يفقد ذاته أيضا.

كانـــت تبدو تائهة في المرآة. هرمة. عاقبت نفســـها، بطريقة غير معقولة، على خطأ لم ترتكبه هي، بل شـــخص آخر. لم تعد تملك شيئا. لا أحد يستطيع الاتصال بها أو موافاتها.

فكرت في ألا يستطيع أحد التعرف عليها إذا كانت هي نفسها تتســـاءل عمن تكون عندما تفحصت انعـــكاس صورتها في مرآة الحلاق الألماني الممتلئة بالمصابيح.

استقلت حافلة أخرى. واجتازت الحدود السويسرية.

عندمـــا رأت أول بحيرة مـــن فوق توتلينغـــن كادت تطير من السعادة.

***

- في مدينة بَيَال امتلكت الشجاعة، واتصلت بوالدتها من الفندق.

- . لا يتوقف توماس عن الاتصال.

- . لا تردي، ماما.

- . أفعل ما أشاء ابنتي. أين أنت؟

- أنا في لندن. ســـأوافيه. لا تقلقي ماما. مجرد اختلاف بين الأزواج، لا تقلقي، ماما الصغيرة.

- أنا قلقة. فقط.

***



الفصل الثالث عشر

شيء من الطبيعة البدائية كان لايزال موجودا في الأونغدين. الغابات لاتزال كما كانت قبل مجيء الإنسان إلى أوروبا. البحيرات هي نفسها. والهواء يحمل نقاء وشفافية لا توجد في مكان آخر من العالم. كانت تتمشى طوال النهار في الأيام الأولى. كان الجو لايزال دافئا. وكانت تهيم في الغابات من دون أن تفكر في شيء. عند الزوال كانت تجر كرسي بحر طويلا إلى شرفة غرفتها في الشمس. وتراقب الصيادين يقودون زوارقهم على البحيرة ويحلمون بالصيد وهم يطفون فوق البحيرة.

كانت تنظر إلى الشمس ترمي بظلال ضخمة.

في المساء، لم يكن جيرانها في الغرفة يتكلمون، كانوا يكتفون بالهمهمة، كما في العالم القديم. كانوا يمشون بهدوء على الأرضية المشمعة. غطاء المائدة كان متكلفا، ولم يكن أحد يضحك في أثناء الأكل.

بعد يومين قررت الخضوع لعلاج حراري تام. خلال أسبوع لم تكن شيئا سوى جسد. ذابت في جسدها. أحست بحدود جسدها. التي هي عشرون أصبعا، وأنف، وقليل من الجنس تسري فيه الحياة خلال النوم.

***

العينان الكبيرتان والداكنتان، الرموش الطويلة، الجبهة الملساء والعارية، الشفتان المكتنزتان والجميلتان، الشعر القصير الأشقر بخصلات بيضاء، السترة القطبية البيضاء.

أعجبته هذه المرأة في الثلج.

تناولا العشاء معا.

***

سمعت قططا تموء وتصرخ مثل الأطفال. فتحت عينيها. أضاءت مصباح السرير ونظرت إلى الساعة. كانت الثالثة صباحا.

بعيدا عنهما، على إحدى الشرفات، كان قطان يتشاركان المواء، والأنين، كانا يتأوهان ويتحابان.

استدارت ونظرت إلى الرجل الذي يتنفس بجوارها. لمست كومة الشعر القصير على الرقبة. انسلت وتكورت قرب الجسد الساخن. كانت رائحته طيبةً. وكان تجويف كتفه رطبا.

حيث نامت.

***

إذا انعدم الاستحقاق، انعدم الوفاء.

الأشخاص الذين لا يستحقوننا لا يكونون أوفياء لنا.

هكذا كانت تحدث نفسها في الحلم الذي كانت تحلمه.

التزامهم بجانبنا لا يعني خوفهم أو كسلهم أو إهمالهم أو بطالتهم أو تراجعهم أو حمقهم.

نراقب ونحن جالسون على كراسينا أو مستلقون في أحواض الحمام أو مستلقون على أسرتنا أفرادا مُتراخين أو غائبين، نحن بالنسبة إليهم غير موجودين.

لا نخونهم عندما نهجرهم. جمودهم أو شكاياهم هجرونا قبل أن نفكر في الافتراق عنهم.

غادر الليل بحيرة كُومْ.

اجتازت ثالث حدود لها من دون مشكلات.

***

إذا كان القدر هو هذا الاندفاع الذي يصدر من خارج الذات، يمسك بالكائن ويجره وراءه، من دون أن يفهم كنهه، فإن لها قدرا. كانت تعي ذلك وتقول: «لا أعرف إلى أين أنا ذاهبة. لكني أسير بإصرار. شيء ما ينقصني حيث أحس أني سأحبّ أن أتيه».

***

لم تخضع سوى مرة واحدة للتفتيش في الرحلة التي قادتها إلى إيطاليا. حتى أن موظَّفَي الجمارك لم يفتحا جواز السفر الذي قدمته لهما. أهدياها زهرة توت نمت في غفلة تحت شعاع الشمس. أحست بسعادة مفاجئة وعنيفة عندما نزعت قفازها لتلتقطها أصابعها. هذه الزهرة الصغيرة كانت علامة مُعجِزة بين أصابعها.

تابعت سيرها إلى ليكو، متدثرة في سترتها القطبية البيضاء الكبيرة.

استقلت حافلة إلى مونزا، حيث التحقت بالمطار.



الجزء الثاني



الفصل الأول

- كانت الحركة مشلولة. وكان مارس لزجا ورطبا في نابولي. جميع السائقين يستعملون منبهات السيارات. والأغطية . المبللة. التي يفترض أنها تجف في الهواء كانت تهتز بضجيج، ودون توقف، على الشرفات، وعلى أسطح المنازل بين لاقطات الإرسال التلفزي. سحب فينيسيا المطرية كانت تتمركز، وتتضخم.

حطت الطائرة وسط ضباب ممزوج بزيوت الوقود.

الحافلة المثلجة على طريق المطار.

ثم التاكسي الرطب.

ثم الفندق الخالي من التدفئة.

في الصباح ظل خليج نابولي يلفه الضباب.

اشترت هاتفا نقالا دوليا قرب قصر سان سيفيرينو، حررته عند شاب أصهب في أحد الأزقة. اشترت تعبئات عدة. اتصلت بفيري في الصيدلية للاطمئنان على والدتها. كل شيء على ما يرام في البروتون، عدا أن توماس يحاصر السيدة هيدلشتاين بزيارتها كل نهاية أسبوع تقريبا.

- . أين أنت ؟

- «في ايرلندا»، أجابت آن عن سؤال فيري.

غيرت مرة أخرى ملابسها. أحست بالسرور لاقتناء حقيبة جلدية كبيرة بلون فاتح، وتنورات إيطالية من القطن الممزوج بالحرير، وصدريات من الصوف، وسروال جينز رمادي، ومعطف واق أصفر. تخلصت من ملابسها الجبلية. رمت حقيبة الظهر.

عندمـــا وصلت إلى رصيف الميناء كانت الســـماء لا تزال تمطر.
أخبرها ســـائق التاكسي أن الجو سيســـتمر على الحالة نفسها ثلاثة أيام أخرى.

- حتى يغيب القمر.

ألواح المعبر الخشبية كانت مهترئة، ورخوة، ومتزحلقة.

حياتها ؟ حرمان.

كان المعبر يتحرك تحت أقدامها.

جلست.

وهي على الكرســـي المبلل، اتصلت بجـــورج روهل. كيف حال اليون والغومبوندورف؟

كل شـــيء على ما يرام في البورغون. منزل شـــوازي لم يفرغ بعد.

- أين أنت الآن؟

أجابته:

- زاكورة مدينة رائعة.

وصلت الباخرة.

نخاف، في بعض الأحيان ونحن نتقدم على الماء من السقوط فيه، موافاته، والموت غرقا.

دخلت المقصورة، جلســـت قرب إحدى النوافذ. انتابها، فجأة، إحســـاس لم تتعود عليه من قبل. لم يَعُد هو القلق - وهو ما جعل قلبها يخفق.

كان الضيق القديم، الأقدم من كل الأحاسيس.

وأخيرا كان هو الخوف الأصلي.

تسكعت من جزيرة إلى جزيرة، من حافة إلى أخرى، دون أن تعود إلى نابولي.

تـــرددت بين فندقين لذيذين، أحدهما في رافيلو، والآخر في جزيرة إيشيا الصغيرة.

اختارت الفندق الصغير في الجزيرة الفليغرية، أمام الكاستيو، بسبب غرفة تطل، مباشرة، على البحر.

كان للغرفة شرفة طويلة صامتة، لا تفضي إلى غرفة أخرى. عندما يفتح المرء النافذة، يرى أولا الخليج، وجزيرة بروسيدا. ثم يرى السماء اللامتناهية التي تلمس الماء.

***

ذات ليلة لم تســتطع النوم، قامت بتمارين الجيم (كانت تكرر هـــذه المجموعة الطويلة مـــن الحركات الرياضيـــة كلما أصابها الأرق). عندمـــا أحســت بالتعب، دفعت ســـتار النافذة بجبينها، واتـــكأت بـــكل ثقلها على الجبـــين، وضعت الجبـــين على زجاج النافـــذة، وتأملت الخليـــج في الليل، الخليج الرائـــع بالقليل من الأضواء، الخليج العريق جدا.

أحست بفرحة عارمة.

ثم اجتاحها إحســـاس مثير، شمل كل جسدها، أزال كل شيء فيها. انتشر ثم جعل حنجرتها تضيق.

تنمل جسمها من الأرق، ومن اليقظة.

ائتـــزرت بمئزر الفندق، فتحت الباب وتقدمت على الشـــرفة المطلة على البحر.

استندت مرتعشة، بالحاشية المعدنية للمتّكأ.

كان الوقت بين الثانية والثالثة صباحا.

ظهر شعاع ضوئي في طرف الخليج الآخر. كانت الشمس تشرق على سورينتي. كانت بداية النهار ساحرة. مشت طوال الصباح في طرق الجزيرة.

عند الزوال هاتفت جورج:

- كل شيء ساحر. أنا الآن في إيشيا بالقرب من نابولي.

- كنت أظنك في زاكورة. وأتخيلك تقودين سيارة رباعية الدفع في تاسيلي.

- توجد أيضا طائرات.

- إيشيا، لا أعرفها.

- جورج، لقد أصبحت سعيدة.

- إلهي! لا تقولي إنك سعيدة!

- بلى، أنا سعيدة.

- لم أتحمل أبدا الناس الذين يدعون أنهم سعداء.

- لماذا؟

- لأنهم يكذبون. وهذا يخيفني.

- أن تحس بالخوف، هذا لا يهمني. أنا لا أكذب. أنا سعيدة. أنا سعيدة في جزيرتي.

- لأن إيشيا جزيرة؟

- أجل.

شرحت له أين توجد إيشيا ، أي مكان تكون. أي حيوان طليق ومفاجئ كان هذا المكان. ما اكتشفته فيها من الربيع الذي بدأ هنا . أنصت إليها دون أن يفهم. قاطعها جورج روهل:

- أتدرين، وجدت مشتريا لبيت ماما في شوازي.
- أتمنى لك ذلك من قلبي، يا جورج.
- أنت لطيفة. كان هما ثقيلا علي. إنه شخص طيب. شخص لن يسيء لذكرى ماما التي لا تزال تتنقل بين الحيطان.
- أنت أحمق.
- وأنت حمقاء لتدعي أنك سعيدة.
- هذا صحيح.
- لا يبدو أنك تشتاقين إلي.
- صحيح أيضا. لكن احضر بمجرد أن تستطيع. بمجرد أن تتم البيع. احضر لتستريح هنا. سترى. المكان رائع. لقد اهتديت بسرعة في كل مكان. وجدت نفسي في الطرقات، والأزقة، وفي السلالم الحادة التي تؤدي إلى الساحات الصغيرة، وفي البراكين الصغيرة الثلاث، وفي الغابات، وفي المنحدرات الشديدة، وفي السحاب. الناس هنا رائعون. لا يوجد فرنسي واحد. يوجد فقط أناس من نابولي وروس.
- ألا تحسين بالوحدة وسط الروس؟
- أحس في بعض الأحيان أني وحيدة تماما، وبدأت أحب هذا كثيرا.
- لا أعرف إن كنت أحب ذلك، همهم جورج.
- هل من إشارة ما؟
- لا. ولا إشارة. فقط كوخ الغومبوندورف الذي ينتظرك. يتقادم. يهدد بالسقوط في الماء الذي يمر على الزورق الأسود في الورد البري.

- أقبلك يا جورج.
- أنتظرك يا إليان، أشتاق إليك.
حان الزوال. أغلقت هاتفها.
- بدأت توصل شوكتها إلى صحن الإخطبوط في المرسى.
صوت اصطدام البواخر الغريب جعلها ترفع عينيها. هيكلان أحمـــران بمؤخرة زرقاء. هيـــكل أزرق. هيكلان أحمران. مؤخرة زرقـــاء. كان المنظر غريبا. كان إشـــارة غريبة. بدأت الريح تهب. شراب الجزيرة أيضا كان لذيذا.

***

كانت آن هيدن تقول:
- يوجـــد وميض مشـــتت في ميـــاه البحر يبـــدو كأنه يصعد مـــن الأعماق. لا يبرز أبدا. لكنه ينتشـــر تحت الأجســـام، وتحت الطحالب، وتحت ظلال صخور إيشيا. ربما كان ذا أصل بركاني. نور لا يبدو أنه ينبعث من الشمس يلمس الأجسام التي تسبح هنا.
عندما يحين وقت الســـباحة، كانت تذهب إلى غرفتها وتغير ملابسها، ترتدي مئزر الفندق القطني فوق ثوب السباحة، وتنتعل صندل الفندق البلاستيكي ذا اللون الكريمي.
كانت تمر على الصخور، مباشرة تحت شرفتها.
لم يكن هناك مسلك.
كان صندلها الصغير ينزلق على إبر الصنوبر.
عندما تصل إلى الشـــاطئ، تضع مئـــزر الفندق على قضيب حديدي وجدته هناك، وتغطس في البحر.

***

بســبب وحدتها، كانت تنام أقل فأقل. لذا كانت تقرأ بالليل. طلبــت من إدارة الفندق أن يتمّ ترتيــبُ غرفتها في المقام الأول. بمجرد وصول النســوة المكلفات بالخدمة، كانت الغرفة جاهزة. كانــت تغــادر الفندق مع أشــعة الصباح الأولى، بين الخامســة والسادســة. تتســكع مرتدية ســروال الجينز الرمادي والحذاء الرياضــي الأصفــر في هــدوء الصباح وانتعاشــه، في الظلال الطويلة عند نهاية الليل أو بداية انبلاج الصبح، تخرج من المدينة الســاحلية، وتتبع المســالك، وتتنزه على العشــب، تبلل قدميها بالندى، في حقول الكــروم، والزيتون، وفي الأحــراش، تحاول أن تتوه، تعشق أن تتوه، تتوصل أن تتوه. كان عندها فضول لمعرفة ما يخفيه كل حائط أو سياج. لم تندم على منزل باريس، ولاحقا، على مســكنها الذي تملكته بغتة في اللبلاب، على الإيون، عند جورج روهل. وإن لم يكن ســوى غطاء الرأس الواقي الأصفر، أو زاوية جدار، أو قطعة صخر، أي ركن غير مرئي كان كافيا لســعادتها. كــان يكفــي أن تكمــل جسدها بركن حيــث تكــون بلا نظرة، أو غرفة بلا شيء قبالتها حيث تلجأ، أو شرفة صغيرة، أو جزء من بلكونة حيث تكوم جســدها وتنتظر النهار. كانت تســرع الخطى في ضوء أشعة الشمس الأولى. كان عندها فضول لمعرفة عادات النــاس في الفجر، أولــى حركاتهم في الوقت الــذي يتقرر فيه النهار، مصباح ســقف المطبخ الذي يضــاء، الكلب الذي يفتح له الباب كي يدخل، الناس الذين يلبســون ثيابهم، الذين يســرحون شعورهم، الذين يتراجعون قليلا أمام المرآة كي يفاجئوا أنفسهم. عندما تشــرق الشــمس، عندما تنبض الأزقة والشوارع بالحياة

والســـرعة، برائحة التبغ، ورائحة القهـــوة بالحليب، ورائحة ماء الكولونيا، توقف ميكروتاكســـي يعيدها إلـــى الفندق وهو يقرقع ويصفـــر. تتناول فطورا مفرطا في قاعـــة الأكل، تحت الأقواس البيضاء المغطاة بالكروم البكر المملوءة بالبراعم والتي تحمل في بعض الأماكن أوراقا مملوءة بالنســـغ. كانت تستريح أمام المسبح الســـاخن بســـبب ماء البركان الدافئ. أمامها، وقبل ساعتين أو ثلاث قبل الروس، يغطس الألمان ويرشون كل شيء. كانت تنتظر أن يغادر الألمان المســـبح لكي تسبح مطولا بدورها. ثم تصعد إلى غرفتها وهي تقطر، تأخذ حماما، تندس في سريرها، وتشتغل.

هناك، ألفت الرباعي الصغير الذي أهدته لكاترين فيليبس.

اشـــترت في نابولي حاســـوبا ركبته فـــي غرفتها كانت تطلب عبره المقطوعات والكتب التي تود تفحصها.

الفصل الثاني

ظلت تتغنى خلال أسابيع عديدة بـ « O Oh how I !».

كاترين فيليب واحدة من أكبر الشاعرات الإنجليزيات خلال القرن السابع عشر. كانت قد كتبت مرثية عنونتها بـ «أيتها الوحدة !». ألف عليها بورسيل نشيدا يتيه بلا نهاية.

كانت الأبيات تناسب حياتها.

نحف وجهها. نحف جسمها أيضا. لم يبق سوى العظام، والحزن، وأناقة غريبة جديدة تماما.

نما شعرها واستطاعت أن تعقصه من جديد.

أصبح جلدها مشدوها وأكثر اسمرارا. ماء البحر وعلاج الأونغدين جعلا جلدها أملس.

كانت الفساتين تبدو جميلة عليها. فضفاضة شيئا ما بالنسبة إلى جسمها، لكنها رائعة.

لكثرة ما مارست السباحة أصبحت رشيقة القوام. كانت تسبح بمفردها. تمارس المشي بمفردها. تأكل بمفردها. تقرأ في ركنها.

O solitude
my sweetest sweetest choice
devoted to the Night

لم يكن غناء بورسيل يستغني عن هذا المقطع الذي يشتغل مثل المشي.

كانت دائما تمشي بطريقة حازمة، مستقيمة القامة، تقدم الساق والركبة باندفاع.

O Oh how I

Solitude adore !

كانت كاترين فيليب قد كتبت في قصيدتها:

صوت متوحد يرتفع من دون عنوان في أعماق الروح.

لا حسي مثل شعاع شمس.

انتشاء في أحشاء الطبيعة

مولد الزمن.

***

أحذية مغطاة بالطين،

متسخة، موحلة،

مملوءة بالعشب،

تمشـــت كثيرا، في كل مكان في الجزيرة. تمشـــت بلا عياء. كانت تجوب المكان، وتحفر الطرقات، وتتخطى منحدرات البركان كل يوم.

***

كل مـــا ألفتـــه كان يمكن أن تســـعه مجموعـــة صغيرة. كانت تعزف قليلا. وما ألفته تم تســـجيله. لم تكن تستســـيغ المؤلفين، أبـــدا. ولا العازفين ولا النقاد. ولا المتخصصين في الموســـيقى. لم تكـــن تعقد حياتها بالالتقـــاء بهم. ولـــم تكـــن تقـــرأ أبـــدا الســـير الذاتية، ولا المراســـلات، ولا إعلانات الوفيات. لم تكن تحب ســـوى الأعمال، وتحب في الأعمـــال، بعض القطع. كل ما أحبته من الموسيقى التي ألفت أو دونت كان في الإمكان أن يسعه كتيّب صغير. كتيب كان في الإمكان أن يعنون بـ Nativity of

time(ولادة الزمن) لو أن الناشر قبل الاحتفاظ بكلمات كاترين فيليب. الأشياء الأساسية يمكن نقلها بيسر.

***

ذات يوم دفعها فأل حسن إلى ميلانو. ربما لم تكن التوقعات الغامضة لتغير مجرى الأيام، لكنها تكشف الفرص. تحفز على جُرأة مفاجئة.

دخلت إلى البناية العتيقة. ضغطت على الزر العاجي لاستقدام المصعد.

هبط المصعد العتيق، ذو الواجهة الزجاجية، الهشة، المصنوع من خشب برنامبوك.

انسلت بين دفتي الباب الضيقتين المطنطنتين.

خرجت من القفص الزجاجي الرنان والمرتعش.

وقفت جامدة بقلق أمام باب شقة ميلانو الأسود الكبير.

ضاقت حنجرتها كما حدث في الماضي.

انخنقت تقريبا.

ترتدي تنورة خضراء (أخضر باهت)، كنزة كحلية بعنق ملفوف.

تجلس إلى البيانو.

يقف المايسترو خلفها.

عبثا تشرح له القطعة التي ألفتها.

لا يفهمها. لا يفهم ماذا تعزف. لا يفهم ما تقوله له. تفر عندما تحس بيد الأستاذ على كتفها.

***

لأن الحياة بين النساء والرجال عاصفة دائمة.

الهواء بين وجوههم أكثر شـــدة. أكثـــر عدوانية، وأكثر وخزا . منه بين الأشجار أو الأحجار.

في بعض الأحيان، في أحيان نادرة، في أحيان رائعة، تضرب الصاعقة فعـــلا، تقتل فعلا. إنه الحب. يتشـــابه الرجل والمرأة. يسقطان إلى الخلف. يسقطان على الظهر.

الفصل الثالث

ذات صبـــاح رأت يافطة Vendesi على شـــرفة فيلا كبيرة صفراء. دخلت آن هيدن البناية.

تبعت حجر المسبح الكبير الوردي المثقوب.

قبالتها شجرتا سرو داكنتان تعانقان السماء. النوافذ رمادية على حيطان صفراء. تفحصت الحديقة.

أخذت تعي ثقل الحياة في الفندق. المواقيت الصارمة، همس العاملين، الإيقاع المفروض دائما، الروائح. خاصة الروائح. روائح الوجبـــات القهرية، روائـــح العناية، والوحـــل، والكبريت، والتبغ، ودحـــي الصابون والألحفة في الممرات. لكنها كرهت هذه البناية البديعـــة، ذات الترف العالمي، المشـــيدة بروعة من أجل الســـياح الذيـــن لا يرغبون إلا في الوجـــود في أي مكان، في غياب الألم، على حافة الموت الذي يسمونه عطلة.

انهمر السيل فجأة.

أخذت تجري.

خرجت من الفيلا المعروضة للبيع بعجالة. اسودت الحيطان. امتـــلأت المجاري على منحدر البركان. ســـالت كل الرابية تحت قدميها. اندفعت سيول كثيرة صغيرة نحو البحر.

الساحات التي اجتازتها خالية.

ملتقيات الطرق مقفرة.

امتلأت مداخل الكنائس بالنساء المتشحات بالسواد الراغبات في حماية أجسادهن تحت المداخل المسقوفة أو في العتمة.

رنّت أسقف السيارات تحت قوة الماء.

- «يـــا له من مطر!» قالت وهي تنزع معطفها الواقي، بعد أن دفعت باب الفندق الدوّار

- نعم . حقا! إنه مرعب!

غادرت الحمـــام ورجعت إلى غرفتها تلف رأســـها بالفوطة. نزعت رداءها.

- «أشعر بالبرد»، قالت بصوت مرتفع.

غرفة الفندق باردة جــدا. يجب أن تدفأ. أخذت تفكر: « أنا في حاجة إلى مدفأة. أنا في حاجة إلى سقف. أنا في حاجة إلى رعاية شيء أكثر حسية من لحن. أنا محتاجة إلى حديقة أهيئ فيها الربيع. أنا في حاجة إلى بيت.»

حينمـــا فكرت فـــي هذه الكلمـــات كانت قد نزعـــت تنورتها وسروالها اللاصق.

اندست في السرير.

سحبت عليها الغطاء إلى الذقن، وضعت غطاء قلم المداد في فمها. واستغرقت في القراءة.

كانت تقرأ: الإمبراطور أوغســـت الذي لم يكن يحب البشـــر، وسقط في غرام أحد الأمكنة.

قايض جزيرة إيشيا بكابري عندما اكتشف قوتها في الضباب.

كابـــري، جزيرة الخنازيـــر البرية كانت تابعـــة لبلدية نابولي الإغريقيـــة. بعد ذلـــك اتخذها الإمبراطور تيبيـــر مقرا بريا له بقصورها الفلكية الاثني عشر(مثلما اختار الفاليون اللوار).

وضعت آن هيدن الدليل السياحي على الرمل.

كان الجو يعبق برائحة الورود التي تفتحت باكرا.
كان الجو لطيفا.
بعد السباحة. استلقت على شاطئ الفندق أسفل المسبح. كانت تقرأ كتابا استعارته من مكتبة الفندق. يحكي تاريخ الجزيرة التي وقعت في غرامها.
كان الرمل ذا لون رمادي أكثر شحوبا من سماء الفجر.
استدارت نحو الرابية الزرقاء، وفي الرابية الزرقاء انطبع في ذهنها أنها ترى سقفا أزرق.

***

الجمعة العظيمة. الخامس والعشرون من مارس.
قالت لجورج:
- رأيت الطريق وسط أشجار الكاليبتوس. لم أر البيت. عندما نكون على الشاطئ تحجبه أشجار الصنوبر العمودية مع الشاطئ. ومن طريق الكورنيش لا نرى سوى جزء صغير من السقف الأزرق.
- ذهبت لإفراغ علبة بريدك. توصلت إلى ورقة الضرائب.
- سنقوم بكل الإجراءات عن طريق الانترنت. سيكون عمليا أكثر. شكرا. جورج. سأتكفل بالأمر مباشرة.
ثم حدثته عن الفيلا التي اكتشفتها قبل ساعات في الأجمة.
ذهبت إليها من جديد.
كانت بعيدة جدا عن الشاطئ. ويجب الصعود في مسلك وعر جدا، كثيف، ومظلم، قبل التواجد وجها لوجه مع الواجهة المبنية بالحجارة البركانية السوداء. كان البيت يعلوه سقف من الحجارة

البركانية التي تبدو لشدة لمعانها زرقاء.

رأتها أكثر من عشــرين مرة قبل أن تفكر في أنها ستقيم فيها يوما ما.

أحبتها قبل أن تفكر في أنه يمكن أن تعشق مكانا في الفضاء.

الفيلا علــى الحافة كانت في الحقيقة غيــر مرئية تقريبا. ســواء كان المرء على الشاطئ، أو جالسا في المطعم حيث تتناول ســلطة عند الزوال، أو من الطريق، لم يكن ممكنا رؤية أكثر من النصف الثاني من الســقف الأزرق، في منتصف الجهة انطلاقا من الجناح الذي يطل على البحر.

الشرفة مثلها مثل المنزل كانت محفورة في الصخر.

لم تكن للبيع.

كانت مهجورة.

***

مختبئة في الصخر، كانت الفيلا تشرف تماما على البحر.

من الشرفة كانت الرؤية لا متناهية.

في الصدارة، يسارا، كابري، رأس سورينتي. ثم الماء على مرمى البصر. بمجــرد أن تنظر كانت تفقد القدرة على الحركة. لم يكن مَنْظرا، لكن أحدا. لم يكن رجلا، ولا إلها، بالطبع، ولكنه كان كائنا. نظرة فريدة.

أحد ما. وجه محدد ويستعصي على الوصف.

تحرت لتعرف مالكــي البيت الطويل، الضيق، والمهجور الذي يطل على البحر من الجهة الجنوبية الشــرقية. أو على الأقل أن تعرف حكايته.

لم تكن الوكالات العقارية تعرف شيئا .

حصلت على اســم المالكة من خوري الكنيســة الصغيرة. كان الأمــر يتعلق بامرأة تقطــن في ضيعة على الجهــة الأخرى من الجزيرة، كافا سكورا، قرب سان أنجيلو. استقلت الحافلة.

- لا أعرف شيئا. توفي جدي عام ١٨٧٠.

صاحت آن، متعجبة:

- « آه!»

- ســنيورة، لماذا يجب أن تشعري بالألم لمعرفة أن جدي مات عام ١٨٧٠؟

قالت آن:

- سيدتي.

- هل أنت فرنسية، يا سيدتي؟

- أجل.

- هذا مفهوم. افهميني، ســيدتي، جــدي، هــو جــديَ أنا. ولا يتعلق الأمر بأحد أجدادك.

- نعم.

- ليس من واجبك أن تبكي عليه.

- نعم.

- إضافة إلى أن ســنة ١٨٧٠ في إيطاليا، ليســت هي ســنة ١٨٧٠ في فرنسا.

- نعم.

صمتتا.

استطردت آن هيدن:

- لكـــن ســـنة ١٩٢٠ في إيطاليا لم تكن هي ســـنة ١٩٢٠ في فرنسا.

- لكن إيشيا، سيدتي، ليست هي إيطاليا البتة. سأقول لك: لم يكن أحد يســتطيع أن يجعل شـــيئا ينبت فـــي الحديقة. كان جدي قد شـــيد هـــذه الفيـــلا من أجـــل أختـــه، خـــالتي أمـــاليا. لكـــن خالتي أماليـــا ماتت. مات جدي. مات أبـــي. كان آخر من عاش فيها. عاش فيها سنوات ترمله وقد مات.

- المعذرة...

- مرة أخرى ســـيدتي، لســـت ملزمة بأن أسامحك على موت أقاربي. والآن أود أن تتركيني أشتغل.

لم تكن القروية راغبة في إدخالها البيت.

الفصل الرابع

ذات يــوم رجعت ثانية، غضبت المــرأة القروية ، نفد صبرها وانفعلت ضد الســائحة التي أتت من إيشــيا بورتو لكي تزعجها خلال اشــتغالها. طلبــت منها بإصرار أن تدعها وشــأنها. لكي تفهمهــا جيدا، أخذت تصــرخ في وجهها. بدورهــا انفعلت آن، أمســكت يدي المرأة الريفية وأخذت تصــرخ في وجهها. أخذت تصيح:

- إنك تشبهين والدتي! تصرخين في وجهي كما كانت تفعل!

أجهشت المرأة الفلاحة بالبكاء.

أخذت المرأتان تبكيان معا وهما تمسكان بيدي بعضيهما.

ثم دخلتا إلى الضيعة. شربتا كأسا من الشراب وهما تغمسان فيه قطع بسكويت بالسكر. تحدثت كل منهما عن حياتها التعيسة، عن أنانية الرجال وشــبقهم، وتسلطهم وخوفهم، وبأسهم أيضا. تحدثتا عن السعادة التي تشيخ مثل الجسد.

-***-

بعد يومــين، ذهبت آن هيدن لاصطحابها في ســيارة أجرة. تركتهما الســيارة تحت، في الأســفل. صعدتا نحو المنزل الذي يحجبــه الصنوبر. كانت الحافة شــديدة الانحدار إلى الصخر. لم تكن عالية جدا لكنها كانت تدور. كانت الســيدة المسنة تصعد أمامهــا باذلة كل جهدها وتتعب. أمســكت بحبــل غليظ مثبت مباشــرة إلى البركان، بين دغــل العلــيق وأشــجار الورد البري، لم تره آن من قبل.

وهي تشـــير إلى حائط مهدم يمكن رؤيته في الســـياج قالت القروية العجوز:

- فـــي الماضي كان هنا برج مراقبة ضد الساراســـيين وضد الفرنسيين.

- نعم.

- أصبح زريبة للحمير. تعرفون الجنرال مورا؟

- أجل.

- تعرفون أنه استعمرنا؟

- أجل.

- هذا لا يعني لك شيئا؟

- لا.

- لماذا تجيبين بهذه الطريقة؟

لأني لست جنرالا، ولا أنوي أن أنهي حياتي مارشالا.

اســـتدارت المرأة العجوز، هدهـــدت بيدها على رأس آن وهي تضحك، ثم واصلت الصعود.

كان على المرء أن يكون أمام المنزل، الطويل جدا، ذي المستوى الواحد، بـــدون طوابق. لكي يدرك قوته الفريدة. لم يكن أمام المـــرأة القرويـــة إلا أن تصمـــت وتتأمل عندما رأته. الســـياج والأجمة كانا أخضرين، خضرة داكنة، قريبة إلى السواد، مثل الصخر. الشـــرفة أيضا كانت طويلة. بطول الحائط البركاني نفسه.

لم يكن يمـكن أن نـــرى ســـوى أشجـار الرابية التـــي تحـــجبه، أو البحر.

البحر في كل مكان.

أحبت آن المكان، الإطلالة الكبيرة على البحر. توقفت عن الكلام. تركت المجال للسيدة العجوز بعد أن أمسكت يدها من جديد، لكن هذه الأخيرة أيضا لزمت الصمت.

كان المنزل محاطا بهالة من الضوء. شيء لا محسوس، داكن شيئا ما، مثل ضباب من الضوء، مثل حبيبات الهواء.

- لماذا لا تسكنين هنا؟

- الساقيان للجسم، والذكريات للقلب.

كانت الفزورة التي اقترحتها قروية كافا سكورا ثم أضافت:

- لا يمكن أن تتصوري كيف يكون الضوء قويا خلال الصيف. والحرارة! كيف أعبر لك؟ ما اسمك؟

- آن.

- . أنا اسمي أماليا.

- . مثل جدتك.

- مثل خالتي وليس مثل جدتي. الخالة أماليا كانت أخت جدي. كان جدي يحبها كثيرا. نادني أماليا. وسأناديك أنا.

- «أماليا»، كررت آن.

- إذن، أنّا، لن أقول لك كيف تصبح الحرارة! أي حيوان مخيف يمكن أن تكون!

لم يدخل أي من المفاتيح التي أحضرتها في حقيبتها في قفل الباب.

جلست القروية على حواجز وأوتاد مجموعة قرب الباب، وهي جد مستاءة لكونها جاءت بدون فائدة.

أمامها، كانت الشرفة تمتد على كل الواجهة مملوءة بكراسي، وموائد، وأكياس، وقوارير فارغة.

خلفها كان الحائط أسـود. طفح البركان. الجدران الخارجية كانت من الفليس الأصفر. النوافذ المتتابعة المملوءة بالغبار كانت تطل على بحر الخليج الكبير والأزرق.

خلف النوافذ المتسخة مدفأتان كبيرتان باهتتان.

يتقـدم الصمت على الشـرفة، يتسـلل بين موائد وكراسـي الحديد الصدئ الموضوعة في كل مكان.

جلست آن قرب أماليا، مستندة بظهرها إلى الباب.

كانتا تستريحان.

***

قالت أماليا:

- يجب أن أسأل شقيقي فيلوسينو عن مكان المفتاح.

صاحت آن هيدن:

- انتبهي لرجليك.

- سيعرف فيلوسينو.

كانت آن تسند أماليا التي كانت تهبط الطريق الحاد بالصعوبة نفسها التي صعدت بها.

قالت أماليا، فجأة، وهي لا تزال متشبثة بذراعها:

- أظن أن والدي كان سيحبك.

همست آن:

- لا يمكن أن تتخيلي كم هو جميل أن أسمع ما تقولينه...

- لماذا هو جميل؟

- لم يحببني أبي.

- أبوك ميت؟

- لا. رحل عن المنزل. كنت لا أزال صغيرة.

قالت السيدة العجوز:

عندما وصلتا إلى الطريق:

- هل تعرفين أني لن أحضر كثيرا لإزعاجك في بيتك، يا آنّا.

صاحت آن هيدن:

- إذن تقبلين!

احتضنت السيدة العجوز. كانت في قمة السعادة.

***

استغرقت إجراءات الإيجار وقتا طويلا. ليس بسبب مبلغ النقود، الضئيل، الذي حددتاه بينهما. خلال سنة لن تدفع «آنّا» شيئا مقابل تحملها تكاليف الإصلاحات اللازمة. لكن كان ينقص موافقة باقي أعضاء عائلة أماليا للبدء في الأشغال.

لم تكن آن قد حصلت بعد على مفتاح البيت، لكنها واصلت صعود الطريق الوعر.

كانت عاشقة. يعني مهووسة.

منذ ذلك اليوم لم تعد تفكر فيما كان جورج يسميه الكوخ على طول اليُون في تيلي. ولا في بيت باريس المعروض للبيع. ولا في مسكن والدتها في بروتاني.

كانت تحب بطريقة عاطفية، ومهووسة، بيت الخالة أماليا، والشرفة، والخليج، والبحر. كانت تود الذوبان فيما تحبه. يوجد في كل قصة حب شيء مثير. شيء أكثر قِدَما من كل ما يمكن

التعبير عنه بالكلمات التي نتعلمها بعد وقت طويل من ولادتنا. لم يكن رجلا من عشقتهُ بهذه الطريقة. كان بيتا يناديها لموافاته. كان جدارا في جبل تحاول التمسك به. كان ركنا من العشب، والضوء، والطفح، والنار الداخلية حيث أحبت أن تعيش. شيء حاد وعاجل كان يستقبلها كلما أشرفت على صخرة البركان. مثل كائن عصي على التعريف، منشط، لا نعرف بأي واسطة يتعرّف بنا علينا، مطمئنا، ومفهوما، ومسموعا، ومُقدَّرا ومدعوما، ومحبوبا.

***

وجدت في الأسفل مغارة وخليجين صغيرين حيث يمكن أن تسبح بعيدا عن الأنظار. كان شاطئا وعرا. الخلجان فيه صغيرة. تحيط بها الصخور البركانية في الغالب وتجعل الوصول إليها صعبا.

كانت تتسلق، تنظر إن كان هناك أحد على الرمل في الأسفل. في بعض الأحيان تساعدها حلقة حديدية من أجل ربط زورق، أو درجات من الإسمنت تتيح الهبوط إلى البحر التيراني من دون حاجة للقفز.

أصبح شعرها، من جديد، طويلا. ظل كتفاها ضيقين رغم سباحتها كل صباح ومساء. أصبحت تسبح كل يوم في الخلجان. كانت تضع ثيابها في الإسطبل.

الفصل الخامس

ذات يوم، وجـدت، لدى وصولها، المرأة القروية جالسـة في صمـت تام إلـى جوار رجل عجوز. كان الوقت مسـاء. كانا في الشرفة، في ضباب الضوء، جالسين على كرسيين من حديد أمام طاولة صدئة. لـم يكونا يتحدثان. كانا يديران ظهريهما للمنظر الأخـاذ. كأنهمـا نائمان. كانا فـي الحقيقة يديـران ظهريهما للشمس، وينظران إليها تتبعث أمامهما من المنحدر.

قالت أماليا:

- آه! هاهي ابنتي! لن أنهض. أنا منهكة. أنا أقدم لك شقيقي فيلوسينو الذي صمم على الحضور ليقوم بزيارته قبل أن يدعك تصلحين البيت.

نهض العجوز فيلوسـينو. كان يرغب في أن يُري أنّا شيئا ما. سـحبها إلى حدود الشـرفة. خلف صخرة مصفرة كانت هناك شرفة محفورة في المنحدر.

قال لها، باعتزاز:

- «أنا الذي حفرتُها من أجل والدي، انظري يا سيدتي!»

أمسـكت آن هيدن باليـد القوية التي مـدت إليها؛ هبطت؛ اضطرت إلى الانبطاح على البطن لأن الرجل ذا الشـعر الأبيض أمرها بذلك.

من فوق الشـرفة الاصطناعية، المغطاة، كان في إمكان المرء عندما يميل، رؤية الكاستيو، والفندق، والميناء السياحي.

السيارات التي تتحرك بالكاد.

الماء الأبيض والبراق.

استمتعا بالرؤية، ثم نهضا واقفين. صعد الرجل العجوز مع أنّا إلى الشرفة نفسها. نفضا الغبار أحدهما عن الآخر. رجعا ببطء نحو أماليا.

قدم لها مفتاح البيت بطريقة رسمية.

رغب في مصافحتها لإتمام الاتفاق.

صافحت اليد الممدودة.

ثم، في الصمت، أحست تلك التي يسميانها « أنا » أنها يجب أن تتكلم، ألقت خطابا طويلا تشكرهما فيه.

بعينين مغمضتين، كانت أماليا التي ظلت جالسة تنصت بانتباه. عندما انتهت آن، نهضت وقبلتها على الجبين، بصوت مسموع.

ثم اقترب الثلاثة من الباب. أرادت آن إرجاع المفتاح إلى العجوز فيلوسينو. لكن هذا الأخير أشار آمرا. وكانت من أدخل المفتاح في الباب.

دار المفتاح بكل يسر، لكن كان على العجوز أن يدفع خشب الباب العريض بكتفه قبل أن ينفتح فجأة.

دخل الثلاثة.

كان البيت جافا. يعبق بمزيج من روائح القطط، والياسمين، والغبار.

لم تتمكن آن ولا الرجل من فتح النوافذ، عدا واحدة.

دخل الهواء. رفع كمية كبيرة من الغبار أصابتهم بالاختناق. أصابت الثلاثة نوبة سعال ولم يستطيعوا أخذ أنفاسهم.

خرجت أماليا وهي تبكي.

أتمت آن زيارتها للغرفتين الطويلتين وسط نوبة سعال حادة دوّت بغرابة في الغرفتين شبه الفارغتين. (كانت هناك مائدة وكراسيها الثمانية، تمثال كبير من الجبس لِزُوس وهو يخطف أوروبا. كراسي مبقورة؛ تخلصت من كل شيء من بعد، لكنها احتفظت بالمرايا ذات الإطار المذهب على المدفآت، وبيّضت الذهب).

قال فيلوسينو مفسرا:

- والد أبي كان كاتب عدل في بونتي، وكان أخوه الأصغر خوريا في سيرارا.

كان الغبار يصعد عند كل خطوة. وكذلك فراشات الليل.

عندما خرجوا، وعندما زالت نوبة السعال الخشن، قال العجوز:

- أنّا، يجب أن أريك شيئا آخر. توجد عين ماء ساخن في الخارج.

كانت عينا طبيعية في الصخرة، مسدودة بقطعة ثوب كبيرة. أزال فيلوسينو سدادة الثوب. نزلت بعض القطرات الحارة في حوض صغير متآكل بفعل ماء البركان الحار والكبريتي.

***

كانت الشمس تغرب.

بدأ البيت في الاحمرار.

ظلا واقفين.

لم يجدا ما يضيفانه. ورغبا في الرجوع إلى بيتيهما.

رافقتهما آن إلى شـــاحنة أخ أماليا. رفض العجوز فيلوســـينو استعادة المفاتيح.

***

بعد أن انصرفا، صعدت آن هيدن. بعد خروجها من الطريق، عنـــد وصولها أمام النافذة الحمراء الأولى، بدا كما لو أن دغل أشجار يحترق في شمس المساء.

اجتاحتها ذكرى شـــقيقها الصغير، في الماضي، على ســـريره في باريس.

جلســـت على أحد كراســـي الحديـــد الصـــدئ العتيقة على الشرفة.

أحســـت على جميع أجزاء جســـدها في الصمت شبه المبهم (الراجع بلا شـــك إلى امتداد الشـــرفة وتجويـــف الغرفتين في الصخور البركانية) بالامتـــزاج الرائـــع بين المكـــان والطبـــيعة. لـــم تكن هناك منازل أخرى. فقط البحر والســـماء، والآن الليل الذي يلف كل شيء.

***

الفصل السادس

احتفظت بغرفتها في الفندق، لكن جسدها كان يعيش في الفيلا على الرابية. غسلت كل شيء بماء العين الساخن. كانت تنام فيها في بعض الأيام. أو على الأقل كانت تستلقي هناك وتستسلم للنوم، لأنها عند كل نوبة أرق كانت تصعد إلى هناك.

في آخر الليل، كانت تسلّم على الرعاة الذين يكونون قد بدأوا التجوال مع مواشيهم على الرابية.

في دقيقة تمزق الشمس سطح البحر ويعم الضوء كل شيء. شيئا فشيئا يكتسح العمق المكان. تتكون المسافة في البداية من الأصوات التي تنبعث من كل مكان. يظهر كل شيء في اللحظات الأولى في كنه كريمي يمتزج شيئا فشيئا بالبنفسجي والأسود.

ثم بالأخضر حول الأشجار وعلى جنبات الروابي.

ثم تظهر الظلال حول الأشكال. وتبرز المنازل والحيوانات.

في انتظار أن تستطيع الاستقرار في الفيلا الطويلة على البحر، قامت آن بكثير من الأشغال، رمت، وزرعت، وأحضرت زهورا، وسمادا، وأواني فخارية، وأشجارا صغيرة، وأشجار ليمون.

***

في انتظار إعادة صباغته، وإيصال الكهرباء، لم تشتر شيئا كثيرا من أجل المكان: أريكة كبيرة بوسادة من القطيفة الصفراء (اضطرت إلى تفكيكها ورفعها بواسطة الحبال). كرسيا من الجلد.

بالنسبة إلى الباقي (المكتبات، المطبخ، الرفوف، الخزانات)، دفعتها إلى النجار الذي أحضر الألواح الخشبية على ظهر حمار.

تطلب الأمر حمارين لنقل الإسمنت، والإطارات، والرفوف، ولفائف أسلاك الكهرباء، والمعاول، والمجارف، وأنابيب النحاس من أجل جلب الماء من خزان يوجد على بعد عشرات الأمتار فوق ومن أجل إحداث قنوات من أجل عين الماء الدافئ.

في منتصف المنحدر، في الإسطبل الذي كانت تضع فيه ثيابها عندما تذهب للسباحة في الخلجان، وضعوا أكياس وأوعية الصباغة داخل صندوق قديم نصفه من خشب ونصفه الثاني من تراب.

***

كانت السماء تمطر. للوصول إلى البيت، عندما كانت تمطر، أو عندما كان يعم الضباب، لم يكن المرتفع صعبا فقط، بل ممتلئا بالوحل. حرك بائع البيانو رأسه رافضا. كان يقول إنه لن يستطيع أبدا رفع بيانو مستقيما، ولو من نوعية رديئة، ولو حتى من البلاستيك، إلى فيلا الخالة أماليا.

ذهبتْ إلى نابولي. لم تجد شيئا ذا أهمية. برغم أن الصوت لم يكن هو الشيء الرئيسي بالنسبة إليها. بحثت بواسطة حاسوبها عن نوعية معروضة من لوحات المفاتيح بواسطتها تفقد بدرجةٍ أقل المَفاصل وأزرار الحاسوب.

برغم عزوفها منذ خمس عشرة سنة عن الحفلات، فإنها كانت ترغب في البقاء قادرة على عزف القطع التي تألفها من أجل البيانو. كانت تود تسجيلها بنفسها. على الأقل بالنسبة إلى

النسـخة الأولى، لكي تعطيها وحدتهـا وخاصيتها، بحيث يأخذ الأداء الـذي يلي فكرة عمّا ترغب فيه. كان في إمكانها أن تكون رائعة في الحفلات - بواسـطتها عرفت النجـاح في بدايتها - لكنها كانت تسـتطيع أيضا أن تكون باردة، ومنكمشـة، وجامدة، وسـيئة، وشنيعة. لذا فضلت الانسـحاب بهدوء سنوات من قبل مـن الحفلات والمهرجانات. كانت تكره أن تدرس. كانت تكره أن تعزف أمام كاميرات التلفزيون أو في عتمة استديوهات الراديو. بدأت تخـاف من نفسـها. لم تكـن مـتأكدة مـما سـتكون عليه، ولا عـن ردة فعلها عند هذا الانقطاع أو ذاك، أو عند هذا التأثر أو ذاك. لم تكن متأكدة من أنها ستحس بما يكفي من القلق لكي تظل مركزة خلال ساعتين متتابعتين وأن تكون قادرة على العزف بكل العنف الذي ترغب في رؤية انبثاقه في الفن.

في نهاية الأمر اشترت بيانو رقميا بالغ التعقيد أحضرَتْهُ من ميلانو، كان خفيفا جدا (ركَّبَهُ مُسـلِّم البضائع بنفسه إلى الفيلا المطلـة على البحر. فـي palazzo a mare، كما قال) ولكنها كرهَتْهُ في الحال.

***

كل العشـاق خائفون. كانت تشعر بخوف شديد من ألا تكون مناسـبة للبيت. تخـاف من ألا تعرف كيـف تتصرف وهي تبدأ الأشغال. تخاف من أن تضعف قوتها. تخاف من أن تكسر توازنا. تخاف من أن تشـعر بخيبة أمل. تخاف من ألا تكون سعيدة كما تصورت أنها ستكون عندما اكتشفت الفيلا للمرة الأولى.

أزال الربيع الخوف.

ثم ظهر الياسمين البري.

ثم أحراش الورود.

ثم شقائق النعمان المتعددة، ذات الألوان العميقة، بجمال الحرير.

ثم أزهار الخشخاش.

أحبت العوم في البحر البارد الذي يُذكرها بمنطقة بروتاني.

أحبت أن تخور قواها في بحر أصبح أكثر سخونة وكثير الظلال مع حلول الربيع. كان التعب يشعرها باغتباط، وانتشاء جسدي يستعصي على الوصف. كان البحر الأخضر أو الأزرق ينساب على كتفيها، على رقبتها، وينساب بين ساقيها، يلفها بالتيار والقوة. كانت تسبح فقط الكراول ولا تفكر في العودة إلا عندما ينتابها التعب. عندئذ كانت تستلقي على الظهر، تحلم، وترجع ببطء وهي لا تزال على الظهر، أو تستدير قليلا لكي لا تفاجئها إحدى الصخور، على الطريقة الهندية.

الفصل السابع

وقفت سيدة في موقف انتظار الحافلات.

كانت من دون حراك.

وضعت كيس المشتريات على كرسي البلاستيك الأبيض.

تـــذوب عضـــلات الأفراد الذيـــن يقترب منهم المـــوت، وتتيه نظراتهم.

تمســـك السيدة باقة الزهور في يد، وبالأخرى تمسك حقيبة اليد. حقيبة اليد هي نفســـها موضوعة داخل كيس مشـــبك من أجل الأغراض مصنوع من الغرزات السوداء.

- «ماما ! » همست.

- إليان، هذه أنت.

أشارت السيدة هيدلشتاين بذقنها إلى الزهور:

- اشتريتها من أجلك.

- شكرا ماما.

إنه شهر مايو.

عادت آن هيدن.

- ساعديني ابنتي.

مشتا منحنيتي الرأس، تصارعان ريح بروتاني.

تحمـــل واحدة حقيبـــة يدها وباقة الزهـــور. وتحمل الأخرى حقيبتها وكيس المشتريات وفيه الخبز البارز.

***

وضعت آن كيس مقتنيات والدتها على المغسلة. ملأت مزهرية من القصدير بالماء. صدمت قلادتها التي انفتحت على حاشية الألومنيوم.

وضعت القلادة في جيب صدريتها.

أسرعت إلى جنب والدتها التي كانت تجد صعوبة في نزع معطفها أمام باب المطبخ.

نحفت الأم. اليدان اللتان خرجتا من أكمام الصدار كانتا طويلتين ونحيفتين، يتدلى جلدها على العظام مثل أغصان عارية.

سألت الوالدة من دون مقدمات:

- لماذا أنت الآن وحدك؟ أنا لا أفهمك.

- المهم، ماما، هو أن أفهم نفسي.

كان لوالدتها دائما الكلام الفصل. حملت سلطانية ممتلئة بالماء البارد رطبت فيها عدسا. قالت:

- لا أحد يفهم نفسه، إليان.

قالت آن، بعدوانية:

- وأنت ألست وحيدة؟ ألم تكوني وحيدة خلال أربعين سنة؟

- لا، أنا لا أعيش وحيدة. أنا متزوجة وأنتظر زوجي. وعلى كل حال، يا صغيرتي، أنا سواء أكنت أنتظر أم لا، لا أدّعي أني أفهم نفسي.

***

في كل مرة تلتقيان كان يحدث نفس الشيء. ساعة بالقرب من والدتها وينفد صبرها.

بيع بيت باريس كان قد حدد في العشرين من مايو. استغلت

آن هيدن سفرها لتظل بضعة أيام بجانب والدتها. لم يقبل جورج روهل مرافقتها إلى البروتون. كان قد استقبلها في المطار. قادها إلى محطة القطار مونبارناس، بعد أن تناولا الغداء قريبا من المحطة، في الشارع الكبير، في مطعم سمك. لم يكن يرغب في العودة إلى مكان طفولته مهما كان الثمن.

- اتصل عاشقك.

- آه!

- كان يريد عنوانك.

- وماذا أجبته؟

- الحقيقة. قلت إنه ليس لديّ عنوان. أنت فعلا لم تعطني عنوانك.

- ماما، أكرر لك مرة أخرى أني لا أملك عنوانا.

- احكي هذا الكلام لشخص آخر، ابنتي. لكن فليكن وفق رغبتك. عاشقك قال أيضا: «لم أعلم بأي شيء» أخذ يكرر «لم أعلم بشيء، سيدتي. أقسم لكم سيدتي». كان يبكي على الهاتف. كانت قصة حزينة.

- هذا سيجعل عينيه تلمعان.

- يا إلهي.

- بعينين تلمعان، سيتفحص عمق حياته باهتمام.

- لست مسلية ابنتي.

كان عيد الارتقاء. غضبت أمها بشدة.

أرادت مارت هيدلشتاين الذهاب إلى القداس مصحوبة بابنتها.

- فقدت الإيمان، ماما.
- ألن تستطيعي أن تتمشي معي خمسمائة متر، ثم تجلسي بقربي ثلاثة أرباع الساعة؟
- طبعا ماما.
- إذن هيا بنا.
- لكن هذا جنون، ماما أقول لك إني لا أرغب في ذلك. هذا يثقل علي.
- وهل تظنين أن كل شيء لا يثقل علي البتة.
- لكن ، ماما، انجلت الأوهام، لم أعد أمارس.
- تعالي على نفسك.
- لا.
- لن يضرك إن صليت قليلا.
بعد أن تعبت آن، استسلمت.
بعد ذلك كان يجب البحث عن العصا ذات المقبض الفضي التي أهداها إياها جدها لوالدتها والتي كانت ضائعة في البيت. ثم ذهبتا إلى الكنيسة. راقبتهما كل القرية تمشيان بخطوات بطيئة. كانت السيدة العجوز هيدلشتاين تتعثر تحت المظلة المفتوحة التي تمسك بها آن فوق رأسها.
عندما وصلتا إلى الكنيسة وجلستا على كرسييهما، لم تكتف السيدة هيدلشتاين بإخراج كتاب القداس من حقيبتها، لكنها أخرجت أيضا كتاب ابنتها الذي حرصت على إحضاره كما لو كان عمرها اثنتي عشرة سنة.
فتحته على الصفحة المنشودة. كان من حسن حظ آن هيدن.

لأنها أمضت فترة الصلاة ووجهها مختبئ في الكتاب.

الارتقاء هو الاحتفال المخصص للرحيل.

غادرت السماء للمجيء إلى هذا العالم والآن أغادر العالم.

ظن رجل أنه يسمع صوتا يقول له انهض. غادر منزلك وانطلق للبحث عن المكان الذي سأريك إياه.

ورحل.

ذهب ليري وجه أرض أخرى لم تكن أرضا.

***

إكسومدين ترونس كتاني، نوروفين، ليزانكسيا، توكو ٥٠٠.

- صباح الخير، فيري.

- صباح الخير، آن.

- خرجت آن من الكنيسة. تركت فيرونيك الصيدلية في عهدة مساعدها. ذهبتا إلى مقهى في الميناء حيث كانت تنتظرهما السيدة هيدلشتاين.

- اتصل بي توماس. حكاياتكما تزعجني.

- لست أنا من يتحدث عنها.

- التقينا لبعض الأحيان. يجب أن تتصلي به. تفاهما على الأقل مرة واحدة.

لم تجب آن هيدن.

- انسي مغامرة شوازي. لو - روا.

لم تجب آن.

- تعلمين أنه افترق عنها؟

- هذا لا يهمني. فليفعل ما يشاء. لا أطلب شيئا آخر.

- أنهِيا خلافاتكما.

- لا.

- أنا صديقتك.

- لا. لست صديقتي عندما تتحدثين بهذه الطريقة. على كلّ حال لا أدري لماذا أحس أنك تكذبين.

***

كان يوما أحسست فيه أنها تائهة.

لم تكن والدتها تغادر المطبخ. كان عمرها ستا وثمانين سنة. كانت تظل منكمشة في كرسيها المطوي المصنوع من أنابيب خفيفة، مثل أرنب بري يرتعد في الأحراش.

كما تخدع بعض الحيوانات مفترسيها أو أعضاء فصيلتها أو غزاتها بشكلها الشبيه بالنبات أو بجمودها، كانت تحاول تضليل الموت مختبئة وراء وسائدها وتحت أغطيتها.

تابعت مارت هيدلشتاين همهمة لا يفهمها سواها.

- حتى أنا أضيعُ في غرف البيت العشر. لم أعد أعرف أين رُتِّبَ هذا الشيء أو ذاك.

صاحت فجأة:

- إليان! إليان، انظري هل سرق سرير والدك؟ إليان، وهل تعرفين أين توجد خزانة صحون جدة رين؟

***

حملت والدتها بين ذراعيها. كانت قد أصبحت صغيرة وخفيفة. كان جلدها يتدلى على العظام. كانت تضحك. كانت عيناها قد أصبحتا تشبهان عيني طفل صغير.

كانت أمها ستتكلم. أخذت تشير بوجهها، وشعرها، ويديها. ثم تراجعت.

نسيت ما كانت ترغب في قوله.

أصبح جسمها قصيرا وخفيفا. أصبحت تعيش معظم الوقت في كرسيها. رأسها المفتقرة إلى عنق قبالتها، كانت مشدودة نحوها وقلقة، بعينيها الكبيرتين.

أخذت تحرك الزمردة بيدها اليمنى حول أصبعها بسرعة.

كانت الأم تنتظر شيئا. كانت تعرف من تنتظر والدتها. لم يكن في وسع الاستجابة لهذا الانتظار. لم تكن تستطيع الإجابة عن هذه النظرة في عيني والدتها. لم تكن تحب التفكير فيها. لم تفكر فيها. نهضت.

- ماما، هل تريدين أن نحل لغزا؟

- لا، شكرا، ابنتي، لم أسقط بعد في الطفولة.

***

السادسة إلا ربعا صباحا. أشرقت الشمس وتقدمت في السماء.. أرادت توديع والدتها. « مازال الوقت باكرا، لا بد أنها نائمة» فتحت باب الصالون بحذر. لكن الوالدة كانت مستيقظة، جالسة على السرير مرتدية كامل ثيابها. لم تكن تبتسم.

لم تدر وجهها ناحيتها.

قالت آن:

- أنا راحلة.

هزت الأم رأسها.

مالت الابنة لتقبيلها.

أزاحت الأم وجهها .

- «سأتصل بك»، قالت آن من دون أن تقبلها .

لكن الأم اكتفت بأن هزت كتفيها . اغرورقت عينا آن بالدموع.

قالت الأم:

- إليان سيفوتك القطار. اذهبي.

- ماما أترغبين في أن أحضر لك الفطور.

- اذهبي ابنتي، أقول لك. اتركيني.

***

الفصل الثامن

وصلت إلى محطة مونبارناس في نهاية الصباح. ركبت المترو وذهبت إلى البيت القديم الفارغ، الممتلئ بالصمت. وجدته ممتلئا بالندم والروائح الكريهة.

تغطيه طبقة رقيقة من الغبار الأسود.

مرت ثلاثة أشهر. خلف البوابة، في الحديقة كان الربيع خجولا. قامت بري الأرض اليابسة. أخذت في علبة الرسائل القليل من الرسائل التي أفلتت من علبة البريد. ذهبت عند الموثق في الدائرة الباريسية الثامنة. وقعت باسمها الحقيقي، سلمت المفاتيح، أخذت شيك مستحقاتها، وحيت الجميع. استقبلها جورج في محطة سانس. ذهبا مباشرة إلى مطعم الميناء في تيلي حيث تناولا العشاء. أخبرها جورج أنها تغيرت. كانت قد نحفت. (لكنه هو، في شهرين، كان قد نحف أكثر منها). كان لونها قد أصبح برونزيا. ذلك المساء كانت ترتدي صدارا من الصوف الأسود، وتنورة رمادية طويلة من الحرير تتحرك حولها، وتنتعل حذاء رماديا.

لم تكن تتحدث بيسر (لحم ، مكعبات من الشمندر)، كان ثمة كثير من الحذر، والتربية، والخوف، والتحفظ، في أعماقها.

كانت قد أصبحت ربما أكثر إيطالية. هذا ما تجرأ على قوله.

(سمك نهري، كريمة خس).

لم تجبه.

عادا مشيا على الأقدام.

قدمت الشيك المصرفي لجورج. قرر استبدال التوكيل بحساب مشترك في وكالة أوكسير تحسبا لوفاة أحدهما.

طفقت تضحك.

- آن إليان نحن في نفس العمر.
- برافو.
- حين أصبح عجوزا ستكونين كذلك.
- ما تقوله يحمل في طياته الحقيقة.
- فلنعش معا.
- أنت أحمق.
- لا يستوجب ذلك وجودك في سريري.
- أفترض ذلك.
- فلنتزوج.
- لا.

***

في الحقيقة كان جـورج مريضا. اكتشـفت الأمر مصادفة، بفظاظة منها، في رسـالة من المستشـفى كانت موضوعة على مائدة الكتابة في المدخل.

حاولت الاستفسـار عن الأمر. أنكر. شـكرته على احتفاظه بسرها الخاص بإيطاليا.

- هل كنت تشكين في ذلك.
- أجل.
- أنتِ لستِ صديقة.
- كنتَ أحذر من الرجال وكنتَ رجلا.

- كنتُ رجلا.

ثم أخذ يبكي.

ذات مساء، في أحد المطاعم على طريق جوانيي، بما أنه لم يكن يرغب في الحديث عن صحته ولا عن نفسه ولا عن الوقت، حدثته عن الجزيرة، وعن الفيلا المطلة على البحر، وعن الشرفة الرائعة، وعن قروية سان أنجيلو التي تدعى أماليا، وعن الجمال. متى سيأتي؟ كانت قد هيّأت سريرا من أجله.

وعدها جورج روهلينغر بالقدوم إلى الجزيرة في الشهر المقبل.

***

هل هو يوم النظافة الربيعي؟

أقر السيد دلور.

كان كل شيء موضوعا على عتبة الباب وبلاط رصيف اليون، المكنسة، والسلم، ودلو تنظيف الأرضية، ودلو الإسفنجة، جافيل، مسحوق سانت مارك، السيد بروبر.

وضعت الدراجة النارية السولكس في الساحة الأمامية الصغيرة، وخرطوشة لوكي في يدها.

***

كان الجو يسمح بالجلوس وتناول المرطبات أمام اليون. كان جورج سعيدا لانفراده بآن في طرف الساحة المغطاة بالعشب، أمام كوخ الغامبوندورف، والزورق الأسود، وفراخ البط الحديثة الولادة التي تختبئ تحت ظله. طرأ حادث غريب. كانا يشربان في صمت وسلام، لم يكونا يتحدثان، فجأة تقدم شحرور نحو جورج. مال فجأة، نحو حذائه.

لم يتحرك الشحرور السمين.

لم يتحرك جورج.

أطلق الشحرور السمين أربع صيحات ثم طار.

استولت على آن حالة نفسية ما، ثم قالت.

- إنها علامة، إنها علامة! إنه فأل حسن ، جورج!

رحلت مساء الجمعة.

***

الفصل التاسع

خرجت الجزيرة من الضباب. ثقيلة وساحرة. كانت تفر من الموت. تفر من والدتها. تفر من جورج. استقرت في البيت برغم أنه لم يكن مريحا تماما. كانت ترتدي صدارا أو اثنين وتذهب لتناول الإفطار على الشرفة في الفترة التي تسبق الفجر. كانت تتأمل النهار الذي يبدأ خلف الصنوبرة الصغيرة، أشعة الشمس الأولى، الذهبية الشاحبة أحيانا، البيضاء مثل خصلات القوّاس.

- ثم الزرقاء الأولى.

ثم الظهور العنيف، والسريع، والشرس للضوء وهو ينقلع من البحر.

بدأت تحس بكثير من الخواء، والضيق، و الفراغ فوق الرابية.

حياة الفندق تدعم الجسم، لأنها تحتم على المرء مغادرة الغرفة، والحركة، والخروج، و الرجوع بعجالة، وارتداء الثياب، والنزول من أجل العشاء، و إلقاء التحية، والابتسام. لكنها سرعان ما استعادت الإحساس بمتعة قراءة المقطوعات الموسيقية خلال ساعات والاستغراق فيها، تركها تنمو شيئا فشيئا مثل نباتات أو سحابات أو موجات. ألفت الحياة من دون رجل، من دون أشياء يلزم تحضيرها، من دون الاضطرار إلى الاغتسال، أو التأنق، أو التزين، أو تسريح الشعر.

متعة الاستلقاء على الأريكة، إشعال سيجارة رائعة وإغماض العينين من دون أن يصرخ أحد، أو ينط بعيدا، أو يقترب، أو يتكلم، أو يعلق على الجو، أو اليوم، أو الساعة التي تمر، أو يزعجها.

كانت ترى الخليج من سريرها. كانت قد وضعت المكتبة و السرير بجانب النافذة، جهة اليمين. يستند ظهر السرير إلى المكتبة. مصباح منخفض يعطيها ضوءا جيدا، ضوءا خافتا، كافيا لمهمتها ويديها، ضوءا لا يتسبب في تسخين الرأس ولا حرق العينين.

كانت المكتبة لا تزال فارغة، لكنها سرعان ما ستمتلئ بفضل طلباتها على الإنترنت، و «تخريجاتها على الورق» وتقطيعاتها.

سرعان ما، مستغرقة في غنائها الأدنى، سترى الخليج. ولن تراه.

سترى الخليج ليل نهار، وهي تراه، لن ترى سوى عالم داخلي. ستسمع الخليج الذي ستساهم فيه.

على يسارها دولاب دوار من أجل الكتب اشترته في ساحة قرية فيلوسينو - امتلأ بالمجلات الفرنسية أو الإيطالية، المتعجرفة، والعنيفة، والمأتمية، والسياسية، والمتشدقة، والدينية، والجنائزية - كانت تضع فوقه الشاي.

***

كانت الأوراق، والرياحين، والأواني، والفناجين، والموائد، والأغصان تلمع على الشرفة شبيهة بالكريستال.

كانت تأكل في الخارج حاملة معها صحونها وأطباق الفاكهة، وأطباق الفطائر، وصحون الفناجين غير المتجانسة.

ربما كان ضوء خليج نابولي هو أجمل ما يمكن رؤيته في هذا العالم.

كل شيء يعبق بالماء ويشبه الماء، الأمواج الصغيرة البعيدة المستيقظة باستمرار، تراقص الضوء، تربة الحديقة التي

أصبحت منتعشـــة، بعد أن قلبتها على شكل أمواج صغيرة، بنية وسوداء، بضربات المعول، بعد كل تساقط مطري.

ارتبطت بعمق بهذا الموقع الذي كان يحسسها بأنها تعيش في قلب الماء.

كانت تعتني بهذه القطعة من الطبيعة. كانت تعتني بالحياة التـــي تنمو فيها وتفد وتتكاثر بتلهف. كانت تنهض بالليل لدى سماع أقل ضجيج تحس بأنه غير عادي. كانت تعتني بطريقة غيورة بهذه الأرض، بهذه الفيلا الضيقة والطويلة. كانت تزين أطرافهـــا بالأزهار، وتنظف الصخـــرة البركانية. كانت ترتبط بها بابـــا وراء باب، نافذة وراء نافذة، درجـــة بعد درجة، ركنا بعد ركن.

***

كل فجر كان يجعلها تتأثر.

وضعت أريكة كبيرة بيضاء (تلك التي كانت تســـميها «ســـرير جورج») لتتأمله، وسجّادا ضخما، أزرق مُحي لونه، اشترته بثمن زهيـــد (كان كبيرا جدا لذا كان ثمنـــه قليلا) أمام مدفأة الصالة الأولى.

طاولة جميلة أحاطتها بعشرة كراسي أمام مدفأة المطبخ.

***

اتصلت بوالدتها، الأحد بعد القداس، تعرضت للشتم، أقفلت الخط بعنف. أخذت ترتب الكتب التي تســـلمتها في بريد إيشيا بورتو وأحضرتها في ميكروتاكسي. عندما مدت يدها إلى الرف العلـــوي، كانت تريد وضع كتاب أوبـــرا كبير، وقفت على أطراف

أصابع قدميها، حاولت دفع الكتاب ليدخل أكثر في الرف، فجأة، سقطت على الأرض.

كان الصباغ هو من عثر عليها.

كان مغمى عليها أو أكثر. اضطرت إلى البقاء أسـبوعين في نابولي، في مصحة لم يكن بها سوى عجزة فظيعين وحيث لم يكن من وسيلة لإيجاد أصدقاء. عدا الطبيب (ليونهاردت رادنيتزكي) الذي كان ألمانيا، يعشق الموسيقى (زوجته الإيطالية التي هجرته كانت مغنية مشـهورة)، كان يعرفها ومعجبـا بأعمالها، عالجها جيدا، وساعدها على التعافي.

ألحت على الدكتور رادنيتزكي كي تعود إلى فيلا أماليا. كانت مهووسة بأن تكون فيها. لكنه من جانبه كان يجدها بعيدة جدا.

أخيرا سـمح لها بالعودة إلى إيشيا شريطة أن تستأجر غرفة في فندق المور. سـيكون الأمر آنيا. فتـرة نقاهة، الوقت اللازم لإتمام وتعميق التحليلات الطبية.

منعها أيضا من السباحة بمفردها في الخليج.

فـي نفس اليوم ذهبت إلى فيلا أماليا. كان الكهربائي والبناء قـد أتما عملهما. وكان النجار والصباغ ينهيان عملهما. وبعد أن ينصرف العمال، كانت تظل تقرأ في الشرفة. وما أن يَحُلَّ المساء حتى تتوجه إلى الفندق الذي كان على بعد مائة متر.

الفصل العاشر

على يمين قاعة الاستقبال في فندق المور يمتد صالون كبير. ينقسـم إلى ثلاثة أجـزاء كبيرة: صالة كبيرة تحتـوي على بار، وبيانو بار، وعدة كراسـي من الجلد الأسـود، وخوانات صغيرة، حيث يتواجد الزوار باستمرار.

مكتبـة خفيفة الإضاءة، بها مدفأة جميلة من القرن الخامس عشر لم يكن مسموحا باستعمالها، وكراسي رمادية واسعة.

وأخيـرا قاعة للألعاب التي كانت تُمارَس في الماضي، بلياردو في الوسط سجاد مغطى ببابين مطعمين بطريقة قديمة وجميلة، وسـائد للجلوس من الجلد الموريسـكي، كرسي طويل مغبر لكن جـد مريح. لم يكن أحـد يدخلها. كانت تشـرب فيها المرطبات بمفردهـا. كانت النوافذ الزجاجية التـي تغطيها الأزهار تجعل الغرفة مظلمة. في الأيام الممطرة. تسبب الضيق شيئا ما. كانت ملاذا للسلم. وفي الصيف. للانتعاش.

ذات مساء جمعة كان الدكتور رادنيتزكي موجودا بها.

أخبرهـا أنه غالبا ما يأخذ غرفة فـي هذا الفندق في نهاية الأسبوع عندما يكون وحيدا في نابولي. لهذا السبب أعطاها هذا العنوان لكونه يرى أن عليها أن تستريح. كان يحب أن يصطاد في البحر. في هذا الوقت كان مشغولا بالتحضير للغوص بين فيفارا وبروسيدا، تحت الرأس المدعو البيترون.

كان منحنيـا على خريطـة المنطقة التي بسـطها على بابي البلياردو المطعمين.

على هـــذه الخريطة كانـــت تظهر الخلجان الأكثر وحشـــية، وكذلك أقل مسالك الجزر.

مدت أصبعها لتريه المنزل ذا السقف الأزرق.

قالت له:

- إنه هنا.

- ماذا؟

- موقع الجنة.

أرته مربعا أسود صغيرا في نهاية أحد المسالك. فجأة أحست بجسده، بحضور جسده بالقرب منها.

- هو في الواقع أزرق.

- يوجد قبل رأس مولينا. قبل فيلا نوزي بوزي.

- يجب المرور عبر الشارع البحري.

- لا.

- انظري إذا!

جلبت المصباح على العمودين المطعمين. فجأة أخذ ينظر إلى الوجـــه الأنثوي الذي كان مضاء بالفرح وهو ينظر إلى المخطط. مال مرة أخرى. كانت الجزيرة محاطة باللون الأزرق. لمس جبينه جبينها ثم نظرا إلى بعضهما.

***

تعشـــيا سويا. أخبرها أنه بعد غد مساء سيكون يوما سعيدا. ستحضر زوجته من نيويورك. كان قلقا.

- ما اسمها؟

- ماجدلينا.

صعدا سويا إلى غرفة ليونهاردت.

في الليل، على الشرفة، قالت لليو رادنيتزكي:

- أظن أن في داخلي عمقا من تصلب سلبي كان سبب تعاستي.

- سلبي؟

- أجل. شيء يستعصي على الفهم لكن هذا ما أتصوره.

- لكنك مع ذلك امرأة مستقلة، وحيدة، أبدعت أشياء جميلة جدا...

- لم أبدع إلا قليلا. لست وحيدة إلا منذ فترة وجيزة. ضيعت وقتي مع رجال لم يحبوني. أنت مطلق.

- أجل.

- عندك صديقة؟

- لا.

في اليوم التالي ذهبا بالقارب إلى بروسيدا.

غاص، كما سبق أن أخبرها، تحت مغارة البيترون.

سمح لها بالسباحة، إلى جانبه، تحت مراقبته. أمضيا كل ساعات اليوم والليلتين معا. أراها منزله.



الفصل الحادي عشر

لا، بالنسبة للموسيقى لن أقول إني أحسست فيما مضى وأنا طفلة بحب مفاجئ تجاهها. ولم يكن أيضا ميلا. كان شيئا فظيعا. وكنت صغيرة جدا لكي يكون الأمر ميلا. شيء قريب من الإحساس بالدوار. كان والدي موسيقيا.

ومع ذلك لم يكن هذا الشيء يعني والدي. كان مثل حالة القلق. نحس فجأة أننا نغرق في زوبعة من الأحاسيس لن نستطيع الخروج منها. لن نطفو. نغرق. لا يوجد شاطئ أمان. لن نستعيد التوازن من جديد.

هذا الشيء يحدث عندما نعشق. بالنسبة لي هذا هو التعريف. هل تحسون بهذا الدوار. الحفرة هنا تنفتح فعلا وتجذب. عشت هذا الإحساس الذي يجعلنا نسقط جسدا وروحا مرة واحدة. كنت فعلا صغيرة. لا أعرف بالتحديد كم كان عمري. لم أكن أعرف القراءة بعد.

لم يكن مسموحا لنا، نحن الطفلين، بالصعود إلى طابق جدي.

عندما أتحدث عن جدي أعني والد أمي. لم أعرف الجدّ الآخر.

اندفعت في الدرج. اندفعت على أرضية الممر الخشبية، لم أعُد أعرف ماذا كان السبب، لم أعُد أعرف ما الذي كان عليه التحدي. فتحت الباب. كان الأربعة مستغرقين في العزف. كانوا يحدثون صوتا قويا. أقوى من المحيط. لم يسبق أن سمعت شيئا بمثل تلك القوة.

كان لكل واحد مصباحه، وطاولته الخشــبية أمامه. كان وجه جدي مستلقيا على الكمان. كان الأكبر سنا ضمن الأربعة. وكان يغلق عينيه. والدي. الذي كان يتمتع بكل المواهب. كان قادرا على العزف على جميع الآلات. كان ممسكا بالكمان. لم ينتبه إلي أحد وأنا أدخل. كانوا يعزفون شيئا سريعا. كانوا يعزفون شيئا مؤثرا. أظن الآن أنه كان موسيقى لشوبيرت.

كانــت امرأة جميلة على الكمان، عيناهــا مفتوحتان، لم تكن تراني. كانت تبتسم لي لكنها لم تكن تراني.

كان حزنا كبيرا جدا، ومُدوِّخا لا يتوقف. بل يكبر.

حزن كبير حتى وإن لم يكن هناك حزن كبير بالنسبة للصغار. الصغــار يعرفون مظاهــر الرعب الأولى، الطبعــات الأولى من الرعب، التي لا مرجعية لها في التجربة، والتي لن تعود أبدا في طريقهم. أسوأ مظاهر الرعب. الحزن السحيق.

ظللتُ جالســة علــى الأرض، متكئة بظهري إلــى الباب. كل جسمي كان مغطى بالحبيبات. توقفت كل شعيرات جسمي التي بالــكاد بدأت تنمو. أخــذت أرتعش. لم يكن فرحــا ولا حزنا. لم يكن السبب نفســيا. لا أعرف لماذا ارتعش جسمي. استمعت إليهم حتى النهاية. عندما انتهوا، وبينما كانوا يجمعون آلاتهم في العلب الســوداء، ذهبت أسأل جدي. وأنا أكلمه همسا في أذنه. إن كان بإمكاني المجيء في كل مرة يعزفون بها.

- إذا جلست في ركنك هادئة كما فعلت اليوم، طبعا، يا إليان.

بحــث بنظراته عــن موافــقة الموســيقيين الآخرين، الذيــن لم يعترضوا بينما اكتفى والدي بأن هز رأسه وكتفيه.

في الأيام المخصصة للعزف، كنت أصعد إلى مكتبه قبل أن يحين الوقت. أجلس قرب الباب.

طبعا كانوا يرونني وهم يدخلون، لكنهم كانوا يتظاهرون بعكس ذلك. طفلة صغيرة يحجبها دولاب كتب مربع دوار، من الأبنوس، أصله، على الغالب، من الصين، تسند ظهرها إلى الحائط، قرب أنبوب التدفئة. كنت أتظاهر بالنظر إلى الرفوف التي تغطيها النسخ المقلدة للوحات، وصور الموسيقيين، والرجال العظام، والكتب المتنوعة. كانوا يلجون مكتب جدي، يضعون الكراسي، والمكاتب، والمقطوعات. فجأة يصمتون. فجأة ترتفع الموسيقى. مختلفة عنهم. قوية بنفس الدرجة التي عندما نستمع إلى الأسطوانات، نخفض صوت آلة التسجيل لاشعوريا لأننا نرغب في تخفيض الانفعال الذي نحس به. في كل مرة كانت حنجرتي تضيق، يتشوك جلدي، ترتعش عضلات قلبي، كنت أشعر برغبة في الصراخ، لم أكن أعرف كيف أتنفس، كنت غارقة.

***

- هكذا انفتح العالم الداخلي في. عبر هذه الفجوة المظلمة اعتاد جسدي على المرور، ومغادرة الأرض، ومغادرة الفضاء الخارجي.

***

- في بعض الأحيان، عند لحظة من القطعة، كان جميلا جدا.

يمتزج الألم بالجمال الشديد.

كنت أتوقف عن الحركة، كنت أتوقف عن الحياة.

يبدأ الأطفال في الإحساس بالرعب أمام الجمال. بالانبهار به. بالموت فيه.

***

ليونهاردت رادنيتزكي:

- لا أعرف إن كانت صغيرتي لينا ستعشق الموسيقى. أنا أعشق الأوبرا. في الليل، بواسطة سماعتي، أعزف أو أستمع إلى ألحان أوبرا. أحب الصوت أكثر من الموسيقى نفسها. تغنين؟

- لا.

- أحب درجة ونبرة صوتك حتى وإن لم تكوني تغنين. والدتها تغني. على الأقل كانت تغني. كنت أحب صوتها. صوتها هو ما جعلني أحبها.

- لا تزال تحبها؟

تردد.

- أجل. بعض الشيء. هي التي تركتني. تعود لينا من عندها غدا.

- أعتقد، بحق، أن الموسيقى، في البداية، على الأطفال الصغار جدا، بسبب السمع الموجود في أعماقهم والذي هو سابق على وجودهم، والذي يسبق مجيئهم إلى هذا العالم، تضيّعهم.

- تعود غدا.

- هل أستطيع تنبيهك إلى أن هذه المرة، على الأقل، هي الثانية التي تتحدث فيها عن عودة ابنتك الصغيرة؟

- ثلاثة أشهر للواحد وثلاثة أشهر للآخر. هذا هو الحكم الذي نطق به القاضي. أن أربي وحدي طفلة عمرها عامان

وثلاثة أشـــهر لا أعلم إن كنت قـــادرا على ذلك أم لا. أنا خائف. لهذا أحدثك عن الأمر. سأكون سعيدا جدا لو استطعت تربيتها. هل ترغبين في رؤيتها؟

- أرغب كثيراً.
- لا تحضري باكرا. لا تحضري غدا. لا تحضري بعد غد...
- أستطيع أيضا ألا أحضر على الإطلاق.
- لا تكوني شديدة الحساسية. تعالي يوم الخميس.

***

كان الدكتور ليونهاردت رادنيتزكي مع الأســـف، مســـرفا في قلقه الجســـدي، في وسواسه من مشاكله العائلية، تجاه مشاكله الخاصة بالعمل، بنفس الدرجة التي كان بها مســـرفا في فرحه، ورغباتـــه المفاجئة، وشـــراهته غير المتوقعة، وجولاتـــه المباغتة، وغوصه المفاجئ.

***

قالت آن لفيري:

- أحس بين أذرع الرجال الذين أنجذب إليهم بشـــهوة حسية متقلبة.

***

حمى ممزوجة بالخوف.

الرجـــال الذين تحس برغبة تجاههم أصبحوا من الآن رجال أحلام. كانت تتحرك مثلهم، تطوف أكثر قليلا. الرجال الأحياء القلائـــل، كانت تتعرف عليهم فـــي الماضي عن طريق جمودهم، وصمتهم، عن طريق الســـر المنتشر من حولهم على شكل تحفظ

عنيــف. لكنها من الآن، بدأت تتوخى الحذر. من الآن، أصبحت تحكــم على الرجال فقط من خلال الطريقة الخاصة جدا التي تلمس بها أقدامهم الأرض وتتفتح بها أعينهم بشكل أكبر.

***

الفصل الثاني عشر

كان يقطن في المنزل رقم أربعة. أحست، قبل أن تدخل الشارع الخلفي، أن شيئا ما سيحدث. لكن لتكون صريحة مع نفسها، لم تكن تحس تجاه رادنيتزكي، بغير الصداقة. صداقة شهوانية، لكنه لم يكن حبا. كانت تعرف. كانت تعرف نفسها. لكن شيئا ما سيحدث خلال الساعات القادمة. انقبض قلبها. كانت مستقيمة. كانت قد تجملت. كانت جميلة. اشترت في نابولي أزهارا للأب وشوكولاتة للطفلة. في الثامنة كانت تطرق الباب. أدخلتها طفلة صغيرة في سن الثانية، حافية القدمين تمشي على أطراف أصابعها ، عيناها كبيرتان وسوداوان ، تشبه أميرة حواديت، إلى شقة بورجوازية كبيرة. كانت تتحدث لهجة نابولية مليئة بالكلمات الأمريكية. لم تفهم آن في البداية ولا كلمة واحدة.

- دخلتا إلى صالون مليء بالرفوف - لا يحتوي أي منها على كتاب - مصفوفة بمئات من الصُوَر الفوتوغرافية القديمة.

كانت الحيطان زرقاء.

كانت النوافذ محاطة بالجيرانيوم الأبيض.

كان هناك آلة بيانو كهربائية كبيرة بذنب أبيض.

قالت لها:

- بيتك جميل.

- بيتي جميل.

- شيء غريب كل أزهار الجيرانيوم هذه في كل مكان.

- أجل. غريب كل هذه الأزهار.

كان الضوء يسقط على الأزهار البيضاء. وكانت أوراقها تشع على الحيطان الزرقاء مثل مؤخرة زورق صيد.

- «اسمي آن»، قالت لها.

- اسمي ماجدلينا. تنادني ماما ماجدة. ويناديني بابا لينا.

- كيف تحبين أن أناديك؟

- مثل بابا

كان الأب قد تلقى اتصالا من المستشفى بسبب حالة مستعجلة. عادت المرأتان النابوليتان اللتان تعتنيان بلينا إلى المطبخ لتحضير عشاء الطفلة وعشاء الراشدين.

جاءت إحدى المرأتين بغتة تحمل مزهرية تحتوي على الأزهار، ثم عادت بنفس السرعة التي أتت بها.

ظلت ماجدلينا جالسة، مرتبكة، مائلة إلى الوراء على كرسيها، تضم ركبتيها الواحدة إلى الأخرى.

لم تعرف آن كيف تتصرف. نهضت. اقتربت من البيانو الكهربائي، وجدت الملامس، قامت بضبط الصوت والملامس. وعزفت من أجل الطفلة.

كانت الطفلة تراقبها مذهولة.

- المزيد.

أخذت الطفلة تتمايل.

- المزيد.

لم تقبل تناول العشاء في المطبخ. تعشت أمام البيانو.

ظلت آن تعزف.

لم تشأ الطفلة الذهاب للنوم.

كان شـيئا مرعبا، هذه الطفلـة الموجوعة. هذا الرضيع على وشك البكاء. كلما توقفت آن عن العزف.

عندما عاد ليونهاردت، أخذ ابنته مباشرة إلى غرفتها لتنام.

ظلت الصغيرة تنادي على آن.

اعذريهـا إنها تريد قبلة أخيرة. أمها أيضا موسـيقية. لا بد أنك ذكّرتها بها.

- أمها أيضا تعزف على البيانو؟

- بطريقة سيئة جدا - لا- أنا الذي عندما أستيقظ في الليل ألعب بواسطة السماعات... آن، أعتذر لك عن هذا الطلب، لكن الصغيرة تريد قبلة أخيرة.

نهضت آن.

دفعـت الباب الموارب. غنت قرب وجنتهـا الأغاني الرومانية التـي عزفتها. سـقطت على أرضيـة الغرفة، في زقاق سـرير الطفلة. كانت تنشـد وأنفها في رائحة الحليب، والكريمة، وسكر الأطفال الصغار. نامت ماجدلينا دفعة واحدة، وهي تطلق تنهيدة كبيرة.

***

الفصل الثالث عشر

كان جسداهما يخلقان الصمت الذي كانتا تعيشان فيه. كانت الصغيرة رادنيتزكي تحب الصمت الذي يحيط بجسد آن هيدن. ربما أكثر من الموسيقى. أو الذي كان مُرافِقها الغامض. حولهما، حول سيقانهما، حول بطنيهما، حول صدريهما، وهما تتقدمان، كان الصمت والضوء يتزايدان بشكل غامض. كان الضجيج يندثر لأن حضورهما كان يطغى عليه. نفس الشيء كان يحدث مع الحيوانات. كان الأمرُ غريبا.

كانت الصغيرة لينا تريدها دوما بجانبها.

في العادة، حين يتخطى الصغار سن الثانية، يبدأون في التحدث بيسر وبتحديد.

لم تكن ماجدلينا تتحدث جيدا. تصورت آن أنها تنتظر علامة من والدتها.

تساءل ليونهاردت:

- علامة؟ لكنها بالكاد غادرتها.

- نعم، علامة. طمأنة. شيء ما. أنا خبيرة في هذه الأشياء.

- سأتصل بها لكن هذا يزعجني. إنها أول ثلاثة أشهر لي. يزعجني أن أطلب هذا من والدتها. سترغب في استعادتها. كل شيء يصلح مبرّرا كي تستعيدها.

لم يتصل بها.

كررت آن:

- أنت مخطئ. هذه الطفلة تنادي.

كانت طفلة صغيرة يمثل وجهها الحنين. كانت آن قد رأت عند الدكتور رادنيتزكي صورة لطليقته. أصبحت والدتها تعيش مع قائد فرقة موسيقية أمريكي.

اكتشفت لينا الصغيرة (ماجدلينا بولينا رادنيتزكي) وحدها هذا الحب وانسجمت معه بطريقة غامضة.

كانت تنتابها حالة من الحماس، والجنون تقريبا، كلما عزفت آن من أجلها على البيانو أغاني أطفال بروتاني القديمة، والأناشيد الكاثوليكية، والألحان الرومانية.

ثم، في فيلا أماليا، على الجزيرة، على الشرفة، أسمعت آن لينا الربيع، وحفيف الأوراق الأولى، وغناء الطيور وهي تحتفل بالشمس، الريح في الليل، والأصوات البعيدة أحيانا، وصوت الأمواج الأصم تحت الحافة.

كان يجب في الأول تعويد أذن الطفلة على معنى ما تسمعه.

ثم، ببطء، علّمَتْها بواسطة كلمات، أن تنظّم في الفضاء سيمفونية الوقت غير المفهومة.

قالت وهي تفسّر للينا:

- لأن كل شيء في الطبيعة، الطيور، المد والجزر، الأزهار، السحاب، الرياح، ساعات النجوم، يخبر الوقت بوقته.

كانت لينا، مذهولة، تتقبل كل ما تهمس به صديقتها الجديدة.

خلال أيام، تعرفت من خلال الأصوات على كل المكان فوق الرابية، وعلى كل الحياة المحيطة بالمنزل.

كانـــت تدفع، وهي تمشـــي على أربع على بـــلاط الصالة، رأســـها إلى الأمام، وفمهـــا يدندن، موكب ســـيارات مطافئ صغيرة وإسعاف في اتجاه المدفأة.

أهدتها آن هيدن آلة كسيلوفون بملامس ذات ألوان زاهية لم تلمسها ماجدلينا قط.

***

ذات يوم، هبت عاصفة. كانتا في شـــرفة الدكتور رادنيتزكي تتأملان وصول العاصفة على البحر.

غاب الخليج في ليل أشد سوادا من الليل نفسه.

ملأ البرق السماء.

قالت لفيري:

- أحســـــت بيد صغيرة تتســـلل بين أصابعي. كانت ترتعش. دلكت أصابعها الباردة لأجعلها تشعر بالدفء.

سألتُها:

- هل ينفع؟ أخبريني ماجدلينا هل هذا ينفع؟

دفعت ركبتي لتصعد بين ذراعي. تمســـكت، وهي متكورة بين ذراعي، مائلة برأسها ناحية البحر. كانت ترتعش من السعادة في تلك اللحظة.

كانت عاصفة رائعة.

منـــذ ذلك اليوم أحبت العواصف وكل المفاجآت غير المفهومة التي تحيط بها. أعلنت نفســـها عاشقة للعاصفة (كان الإعصار، على الأقل، عاشقها عندما تكون بين ذراعي آن).

- أصبحت تلح على والدها كي ترى تلك التي تجلب العاصفة.

***

كان لماجدلينا رادنيتزكي فخذان صغيرتان. فخذان، وسـاقان نحيفان مثل ساقيّ عصفور. كانت طفلة صغيرة ليست ذا جمال كبيـر، شـعرها كثيف وطويل، مسـتديرة من الأعلـى، ينحصر جمالها في حركة الوجه. كان جسـمها يرمي من حولها شـعاعا عجيبا منذ اللحظة التي تسعد فيها. (عندما كانت ترى آن تجلس أمام البيانو، عندما يتحـرك البحر، عندما تصعد عاصفة فوق جزر الخليج) كان يدب فيهما نشـاط عجيب كلما رأت إحداهما الأخرى. كان بالإمكان القول إنهما تتبادلان الحب. لم يكن ممكنا معرفة من منهما تحب الأخرى أكثر.

***

الفصل الرابع عشر

كانت تمطر. كانت آن هيدن تنتظر جورج روهل على الجسر.

نزل إلى الرصيف منحني الظهر، وشعره مبلل، يحمل حقيبة جلدية كبيرة مثبتة على كتفيه.

كان جورج هو الأول الذي لمح الطفلة الصغيرة التي تقف على الكرسي الخلفي تنظر في الفراغ، داخل سيارة رادنيتزكي الفيات السوداء، على بعد ثلاثة أمتار من الرصيف. كان وجه الطفلة حزينا جدا. كانت تراقب المطر الذي يسقط على نوافذ السيارة أو على المزاد.

عندما رأتهما يصلان، أشرق وجهها فجأة، بطريقة لا تنسى. أخذت تضرب بكل قواها على زجاج النافذة. ابتسمت لها آن، فتحت الباب، وقدمتها لجورج الذي كان منزعجا.

بدأت متاعب جورج روهل.

لم يكن يحب الأطفال لعدم معرفته كيفية التصرف معهم.

كانت غيرة طائشة، عنيفة، لا رجعة فيها، في اللحظة التي رآهما تتعانقان عبر الباب المفتوح تحت المطر.

ثم كان الحقد، الكره ضد الجزيرة، أو ربما ضد البحر نفسه.

مطر ناعم كان يسقط.

الأزقة التي ساروا عبرها كانت مليئة بأحجار كبيرة منزلقة. الزبد الذي يغطيها كان مليئا بالماء.

الصعود إلى البيت كان مليئا بالوحل. كاد يسقط. كان التقدم عبر طريق منزلق ووعر صعب جدا. ومع ذلك كانت هناك أشجار اللوز. والورد.

لم يكن جورج منزعجا فقط من الصغيرة ماجدلينا، لكن أيضا من اللغة الإيطالية.

- «انظر كم أنا سعيدة هنا!» كانت آن تقول له.

كان ينظر إلى ماجدلينا متكورة على بطنها.

كان يلاحظ المطر الذي يسقط في كل مكان.

***

كان يكره مطاعم الجزيرة.

***

كانت الزخات المطرية تتجدد كل ربع ساعة.

قال الخباز لآن:

- ها هي ذي تعود.

قالت ماجدلينا وهي تقلده:

- ها هي ذي تعود(كان هذا خلال فترة سخريتها الكبيرة).

ترددت آن في الخروج من المخبز بسبب اشتداد هطول المطر.

كان جورج ينتظرهما في الجهة الأخرى من الشارع أمام مدرسة إيشيا الدينية، وهو يرتدي معطفا واقيا، وعلى رأسه قبعة من النيلون، وفي يده مطرية غير مفتوحة.

***-

لم يحبب أن يبتعد عن المنزل الصغير ذي السقف الأزرق. خاصة الطريق المتسخ والصعب الذي يؤدي إليه. أقرّ لآن أن مطر منطقة بروتاني على بحر بروتاني يصيب بالكآبة رجلا لم يغادر البروتون عبثا. ذهب للاستقرار في الفندق، جارحا بذلك آن. كان يمضي أغلب وقته بعيدا عنها. في الميناء، في

المقاهـــي الكثيرة التي تحيط به. كان يجر، بين زختين مطريتين، كرســـي البلاســـتيك الأبيض على الرصيف لكي ينعم بالشمس ويســـتطيع مراقبة البحارة وهم يغادرون فـــي قـوارب صغـيرة أو في مراكب ذات محرك والمراكب الشـــراعية التي تتجه صوب الحاجز الرئيســـي. كان يراقب المصطافين القادمين، والقوارب التي ترسو. كان يتثاقل أو يمل، أو يثمل، أو يحلم.

***



الفصل الخامس عشر

في شقة ليو في نابولي، أعدّتْ آن قهوة سريعة.

كانت لينا بجانبها، تقف مستقيمة، وتتشبث بيديها إلى المغسلة.

كان ليو يقص شعرها.

نظرت آن إلى حلقات شعر الطفلة تتساقط على أرضية المطبخ.

كانت لينا تقول:

- أقصر من هذا.

استوضح والدها:

- أقصر من هذا؟

- أجل. أقصر. إلى الكتفين، مثل آن.

تنهد ليون وعاود قص شعر ابنته بالمقص.

كانت والدتها تريد تسميتها ماجدلينا بسبب باخ (بينما كان ليونهاردت رادنيتزكي يدعي أنه ينحدر، مباشرة، من سلالة يوهان رادنيتزكي الذي كان ناقل موسيقى هايدن. لم يكن قد بلغ سن الأربعين عندما توفي بفيينا. عُثِر عليه ميتا بالبرد في غرفته، ذات صباح من يناير ١٩٧٠، وهو ينقل إحدى مقطوعة هايدن).

قالت آن هيدن:

- كان والدي قبل الاتفاق مع برلين موسيقيا في جوقة موسيقية. كان والدي هو أستاذي إلى حين رحيله. من سن

الرابعة إلى السادسة كنا نعزف ساعتين أو ثلاثا على البيانو يوميا. أتذكر أن شقيقي كان يصرخ من خلف الباب، ويبكي لكي أشاركه اللعب. كان يكره الموسيقى.

- وبعد ذلك؟
- ليو، هل تريد قهوة؟
- لا.
- بعد ذلك لا أعرف. لا أتذكر جيدا، اضطررت لمقاطعتها سنة بعد رحيله.
- قاطعتها سنة!
- أكثر من سنة في الحقيقة. ثمانية عشر شهرا أو عامين. بالإضافة إلى أن نيكولا كان قد مات.
- وبعد ذلك؟
- بعد ذلك لاحظت والدتي أني قد أخذت أؤلّف طيلة الوقت، كنت أسجّل خلال ساعات، ألحانا، أناشيد، موسيقى، وحفزتني. كان أحد العازفين، الذي كان شديد الارتباط بوالدي، يأتي في بعض الأحيان إلى كونسرفاتوار مدينة رين. في مرات أخرى كنت أذهب لزيارته في باريس.

سأل ليو:

- مَن هو؟
- لن أخبرك باسمه.

كرر ليّو:

- من؟
- لا يزال يعيش في ميلانو. أكثر شهرة مما كان عليه من

قبل. كانت التجربة فظيعة لأسباب بشرية...

- ما هي؟

- لا تسألني، ليو، هذا لن يجدي. أعترف بطيبة خاطر أنه كان أستاذا عظيما. من الناحية التربوية لا يساوي شيئا. رجلا لا يساوي شيئا. معلما جذّابا. عازف بيانو لا يمكن مقاومته. بعد ذلك كانت لدي صعوبات كبيرة مع الرجال.

- أعرف هذا.

- ماذا يعني «أعرف هذا».

- هذا يمكن تخمينه.

***

أن تعهد إلى الآخر بنومك هو، ربما، الوقاحة الوحيدة.

السماح للآخر بأن ينظر إلينا ونحن نستغرق في النوم، نحس بالجوع، نحلم، نتمدد، نتمطى، قُربانا غريبا.

قربانا غير مفهوم.

من تحت الجفنين كانت ترى عينيه اللتين ترتعشان، وتتحركان تحت الجلد الضعيف والشاحب. كانت ترى كل شيء. كانت ترى أنه يحلم. بمن كان يحلم؟ كانت تحلم، بغرابة، أنه كان يحلم أحلاما لا تحلم بها.

كان يحدث أن يطلق، وهو نائم، تنهيدات.

- مثل ابنته الصغيرة.

تنهيدات كبيرة، من كليهما، مثل تنازلات.

***

كان النهـــار قد طلع. خـــلال حياتها لم تنم آن لوقت طويل إلا مع هذا الرجل. كان ليو قد ذهب ليغتســـل. كانت الصغيرة تجر اللحاف. كانت تفحص البطن.

***

اشتغلت آن هيدن، طيلة فصل الربيع، على الاثنتين والأربعين مقطوعة. (المجموعات السبع التي نشرها جان كرتيتل توماسك من ١٨٠٧ إلى ١٨٢٣).

قال جورج:

- أنت قادرة على اختزالها إلى سبعة.

- ربما إلى ثلاثة. هل تعرف، أني أحقق تقدما كبيرا.

***

كان المطر قد توقف.

خرج جورج إلى الشارع وهو يتمشى بصعوبة. لم يطلع الصباح بعد لكن الليل كان قد بدأ في مغادرة السماء. كانت لا تزال بعض النجوم في السماء. والجو بدأ يسخن.

بحـــث عن ميكروتاكســـي. ولما لم يجده، اضطر للمشـــي إلى الفيلا.

عندما وصل إلى فيلا أماليا طرق على زجاج النافذة.

أيقظهـــا وهو يدمدم باســـمها من خلال النافـــذة، من خلف الزجاج وهو يطرق عليه.

وضعت صدارا وجاءت لتفتح الباب.

صرخت. كان مضرجا بالدم.

- ماذا جرى؟

- لا تطرحي علي أسئلة آن إليان. أنا عجوز. كل الرجال الوسيمين يجدونني عجوزا. ويتسلون بي.

- هذا فظيع، يجب إبلاغ الشرطة.

- لا. سأكون فظيعا في عيني إذا فكرت في الشكوى. أستحق ما حدث.

- يجب أن نفعل شيئا.

- لا. هم يتسلون. هم على حق. يتسلون بحرية. كان الأمر مبهجا. شربنا كثيرا.

نظفته وعالجته. لم يجد جورج روهلينجر، بسبب رعبه من البحر، وعدم معرفته للغة الإيطالية، وإحساسه بالاكتئاب، وبسبب الغيرة من ماجدلينا الصغيرة، وبسبب الكدمات التي تغطيه، بُدّا من العودة إلى البورغون. قادته إلى مطار نابولي.



الجزء الثالث



الفصل الأول

كنتُ غافيا في الشـــمس، أتكئ بظهري إلـــى مؤخرة القارب الشراعي، بجانبي أحد الكتب. كان الجو رائعا.

صاحت جولييت، فجأة:

- انظر، يا شارل! انظر.

رفعت عيني.

- انظر!

رفعت رأسي فوق الحاجز لكني لم أر شيئا.

- ألا ترى شيئا؟

- لا.

- انظر!

- أخبريني على الأقل عما يجب أن أراه!

تأوهت:

- يا إلهي!

وقفت على سطح المركب. عندها رأيت الشعر الأشقر والأبيض المنتشر في الماء.

كانت صديقتي تصرخ :

- سنيورة! سنيورة!

همست وأنا ألمح الشكل الداكن الذي يطفو على السطح:

- ربما كانت تسبح على ظهرها.

لكن السبّاحة أو الجثة لم تكن ترد على نداء جولييت.

بدأت جولييت التجديف، واقتربت من المركب الشـــراعي. كنا

في عرض البحر، شرق أناكابري. لم تَرُدَّ المرأة.

- إنها بلا حراك. وعيناها مغمضتان. انطلق!

- استديري قليلا.

غطستُ. أو بالأحرى قفزتُ إلى الماء.

اقتربتُ بحذر من الجسم الذي كان يطفو.

- سنيورة.

لم تفتح عينيها لكنها قالت بالفرنسية وهي تحرك شفتيها:

- أنا منهكة. عندي التواء فظيع.

أجبتُ بفرنسية:

- إذن لا تتحركي.

همست بنوع من الضيق:

- لم أتحرك منذ فترة طويلة. تؤلمني عيناي بشكل فظيع.

أدخلت ذراعي تحت كتفيها. وانسللت بكاملي تحتها. وضعت ثقلها على جسدي، واصطحبتها إلى القارب.

قالت لنا بعد أن قمنا برفعها:

- اتّصلا بالدكتور رادنيتزكي في نابولي.

ركبت جولييت الرقم الذي أعطتنا إياه على هاتفها النقال.

كانت شاحبة جدا. بعد أن قمنا بتمديدها على الجسر. اتكأت على كوعها.

ثم حاولت أن تجلس. ساعدتها على الاتكاء.

- ما اسمك؟

- شارل شينوني.

- شكرا. لقد أنقذتما حياتي.

- «ما اسمك أنت؟» سألت.
- آن هيدن.
- الموسيقية؟
- أجل.
- أعرفك.
- أنا أيضا أعرفك.
- آه!

في طرف الرصيف كانت سيارة الإسعاف والدكتور رادنيتزكي ينتظران.

أمام سيارة الإسعاف، طفلة صغيرة لا يبدو عليها الحزن، تنظر باهتمام. كانت مهتمة بما يحدث داخل السيارة.

أمام الميناء السياحي كان مؤجر البيانو يشرب قهوة سريعة.

قبالته بالثوب الكهنوتي، كان كاهن الكنيسة البحرية يشرب كوكا من القنينة مباشرة.

في زاوية الباب، شمال المقهى، مباشرة قبالة بائع الجرائد، وقف أحد المدنيين، بوجه أمرد، نحيف، ومملوء بالتجاعيد، كان يتكئ على الجدار ويدخن. كان يقترب من الشيخوخة، أصلع الرأس، شعيرات قليلة شقراء حول الأذنين، نظارات مستديرة بإطار حديدي، عينان كبيرتان وشاحبتان. لم يكن صوته سوى خيط رفيع عندما يتحدث. لكنه نادرا ما كان يتكلم. حتى أن الجميع نسيه في ركنه. كان يستنشق الدخان من سيجارته بجرعات قليلة، ثم يأخذ نفسا طويلا ويغلق عينيه. كان يقترب من الموت. كنتُ ذلك الرجل.

***

صاحت:

- سامحوني.

نهضت فجأة من المائدة وغادرت المطعم.

سألتُ الدكتور رادنيتزكي:

- ماذا دهاها؟

أجابني:

- لا شيء. لا تقلقا.

- ماذا، لا شيء؟

ألحت جوليا:

- نعم ماذا أصابها؟

- عندها قطع من الموسيقى. أنت تفهم هذا الأمر، شارل.

أجبت:

- لم أؤلف يوما.

سألت جولييت:

- مـا الذي يعنيه؟ ما الذي ستفعله؟ ستتركنا ننتظر طوال الأمسية؟

- لا، لا. ستدونها في السيارة المركونة في الشارع لتُخلّص منها ذهنها ثم تعود.

***

خلال الشتاء، يكون محل البيتزا في الشارع الكبير فارغا في معظم الأحيان. كانت توجد في طرف القاعة الكبيرة قاعة صغيرة مُساعِدة تفضي إلى الحديقة. لم تكن تستعمل إلا في شهر أغسطس. لم يكن تناول الأكل فيها مسموحا في الشتاء،

لكني وجدت آن هيدن جالسة فيها، لاحقا، بعد ثلاثة أيام. قبلت مديرة المكان أن تقدم لنا فيها الشاي والبسكويت، شريطة ألا ندخن.

ومع ذلك دخنا سيجارة أو سيجارتين، واقفين أمام النافذة. كانت بالغرفة رفوف تغص بقنينات زيت الزيتون المحلية وشراب الليمون. كان هناك حوضا سمك. حوض صغير فارغ. وحوض آخرُ مملوء بالقشريات وبعض الأسماك الصغيرة المضطربة. لم يكن الأصغر أقل جاذبية. على الأقل في نظري. صحراء صغيرة، حصى رمادية، طحالب متقرفصة، شبكة عنكبوتية، عناكب حية. طبقة رقيقة من الغبار تزيدها جمالا. أحببت الحوض الفارغ كثيرا. كان يشبه وادي الموت في الفيلم الذي أفضّله على العالَم لأنه يقول الحقيقة عن هذا العالم، أي عن الكواسر.

كان ثمة أيضا آلة تشغيل موسيقى، لكنها لم تكن تشتغل، لحسن الحظ.

جاءت جولييت لموافاتنا خلال فترة الشاي. كانت لطيفة ووضحت لآن أين وصلت حياتنا المشتركة.

لم أعد أحبه. تقريبا لم نعد معا. أنام في غرفة منفصلة. أنام في غرفة لي.

قالت آن هايدن، بطريقة حاسمة:

- ربما يجب ألا أتحدث عن غرفة لي ولا حتى عن غرفة له. ما نحتاج إليه هو غرفة بعيدة حتى عن فكرة البيت نفسها. مكان منعزل عن المدينة البشرية العالمية الضخمة.

قلتُ:

- بعيدا عن الوحشية البشرية.

استطردتْ آن:

- أنا وجدتهـــا. وجدت غرفة حقيقيـــة، غرفة طويلة تفضي مباشرة إلى البحر. هل تريدون رؤيتها؟

قالت جولييت:

- نعم.

- سأريكم ماذا وجدت.

نهضت آن.

قلتُ:

- أنهي قهوتي. من يريد قهوة؟

من دون قهوة، لن أستطيع العيش. بعد خمسة أو ستة فناجين من القهوة أبدأ في الارتعاش من فكرة الحياة.

قالت جوليا:

- افعل ما تشاء. ودعنا نفعل ما نشاء.

قلت للمرأة التي كانت واقفة في إطار الباب:

- سأتناول قهوة أخرى قوية جدا.

طلبت جولييت قنينة شـــراب أبيض محلي، نهضت، واقتربت من آن.

أخذت تلمس وجه آن بيديها.

- يجب أن تستريحي. تبدين كأنك قادمة من عالم آخر.

- جميل سماع هذا الكلام.

- لا تفهمـــين ما أقوله. تبدين كأنك أتيت من مكان آخر غير

إيطاليا.

- هذا صحيح.

لكن المرأة الشابة ألحت.

- من أين أخذت هذا الوجه؟

كانت قد أمسكت بيديّها. صبت جولييت لنفسها وشربت كأسين من الشراب الأبيض المثلج. خرجتا. تبعتهما من بعيد بعد أن شربت ثلاثة فناجين أخرى من القهوة.

- قهوة إكسبريسو.
- قهوة ريستريتو.
- قهوة سيكسينتو.

هذه هي المحطات.

صعدنا الطريق الوعر.

غفوت على أحد الكراسي.

غفوت على كرسي.

عندما استيقظت رأيتهما جالستين على الفراش الهوائي الموضوع على العشب من أجل لينا. أمضتا الأمسية تتلامسان بالأيدي وتتحاكيان حياتيهما.

***



الفصل الثاني

الشــقة التي أستأجرها «ترافيرسا شــامبولت» كان قد جدّد طلاءها بالرمادي السندســي، بكثير من الاعتناء، صهرُ المالكة. لون الخشــب، والأبواب، والنوافذ، والدواليب، والرادياتور كانت بالرمادي الداكن. نوافذ الغرفة الرئيسية. ستائر القطن الأبيض مطــرزة على الحواشــي بالرمادي. تطل علــى الرابية عندما لا تغطيها الســحب. كانــت جولييت قد احتلــت غرفة في طرف البيــت. في إيطاليا كانت تفضــل أن أناديها جوليا – وفي بعض الأحيان ماريا. كل شيء ممكن في الأماكن الجميلة. كانت شابة، وجميلة جدا. كنت أثير أعصابها كثيرا. كانت تجد الحياة متعبة إلــى جانب رجل يقرأ كثيرا، ولكي يســتريح من القراءة، يواصل القراءة.

جعلني جرس الباب أنتفض.

وضعت كتابي على الطاولة.

مرت جولييت أمامي مســرعة، فتحت النافــذة، اتكأت على إطار الخشــب الأبيــض. لم تكن قد أكملت ارتــداء ثيابها لكنها كانت قد عقصت شعرها. استدارت وهي تبتسم.

– إنها تلك التي انتشلتُها.

قلت مصحِّحا:

– التي انتشلناها.

– أتركك.

– أين تذهبين؟

- يجب أن أرتدي ثيابي.

تأملت وجه المرأة الشـــابة التـــي كنت أعيش معها والتي كانت تقبلني. لكن في الحقيقة لم أستطع تأملها، كان الظل يزعجني، تزعجني الشمس، تزعجني ابتسامتها، يزعجني عريها، تزعجني سرعتها، تزعجني حياتها، كل شيء كان يزعجني.

***

أدخلتُ آن وليو رادنيتزكي في الحياة الاجتماعية الأكثر رقيا.

كانت فترة القيظ الشديد.

في تلك الفترة تركتني جولييت.

جولييت المتعبة من كونها لا تفعل شـــيئا، وبإلحاح من آن لدى ليونهاردت، ابتدأت تهتم بالصغيرة رادنيتزكي (بالتحديد اهتمت بالصغيرة ماجدلينا طوال الوقت خلال ثلاثة أشـــهر. عن طريق التناوب كل ثلاثة أشهر).

***

لم يكن في الجزيرة ســـوى عربات بثلاث عجلات ذات سقف خشبي كوسيلة نقل، بالإضافة إلى بعض السيارات (ميكروتاكسي) الأكثـــر راحة لأنها مقفولة، لكنها كانـــت قليلة. ولم تكن موجودة عندما تهب الرياح أو يهطل المطر. في مجموعتنا، وحدها الأميرة كروبوتكين كانت تســـتأجر ســـيارة في مطار نابولي. ثم تســـتقل السفينة، وتتنقل في الجزيرة في سيارتها الصغيرة.

لكنها كانت تمتنع عن اصطحابنا.

كان الميكروتاكســـي يجد صعوبة في صعـــود الطريق الملتوية وسط أشجار الليمون.

كنا نذهب، نحن الثلاثة، عند جوفيال سينال.

نتراقصُ من السعادة.

- اشتر قنينات ماء عندما تمر.

كانت آن ترتدي ثيابا تزاوج بين اللونين الأسود والبني.

كانت جولييت تغلب الأصفر.

خلال الصيف، أصبحتا تلبسان بنفس الطريقة. كانتا تتبادلان ثيابهما. مما يعني أنه بين عشية وضحاها غيرت آن طريقة اللبس. ارتدت كل ما كانت جوليا ترتديه. لم تختلفا إلا في الألوان (التي كانت تختارها داكنة، متميزة، صارمة أو حزينة).

صدريات بلا شكل. تنانير طويلة وسوداء. كانتا جميلتين. توقفتا عن صبغ الشعر وتركتاه ينمو بلونه الطبيعي.

كانت جولييت تصغر آن بعشرين سنة.

كانت جولييت كتومة. تكتفي بهز كتفيها العريضين.

حادة، بثقة رائعة، مصطنعة تقريبا.

كانت أطول قليلا من آن هيدن، أقل نحافة، عيناها أكثر صغرا، راقصة، هيئتها صارمة، رياضية جدا، تحرص على إزالة الشعر الزائد، كانت أشبه بقطعة عضلات محضة.

كان الجو حارا بدرجة تفوق الوصف.

***

فقدت ماجدلينا إحدى أسنانها وهي تأكل بيضة نمبرشت. صحيح أنها كانت تمتص قطع الخبز بلا توقف. كان على آن هيدن أن تلتحق بليونهاردت على الجزيرة، مباشرة عند أرماندو. تركت ماجدلينا مع جولييت. جالسة على مائدة المطبخ، كانت

ماجدلينا تحاول أن تُدخِل في فمها (ســت أسنان كبيرة تنقصها سن واحدة) قطعة خبز مغطاة بالزبدة والملح، كانت تكتفي بلحس الزبدة والملح. استطاعت آن أن تستقل آخر قارب من نابولي نحو إيشــيا. صعدت إلى فيلا آماليا. بالكاد اســتطاعت أن تستحم وتغيــر ثيابها. وحينما وصلت من أجل العشــاء، وجدتهم واقفين ينتظرونها وقد نفد صبرهم، متلهفين للمرور إلى مائدة الطعام.

كان أرماندو يقص ويجمــع الإعلانات التي تمثل وجوه رجال السياســة. كان يشــتغل عليها كثيرا، يمزقها، ويعيد رسمها. ثم يعرضها تحت عنوان: «وجوه ضخمة لمرضى عقليين».

كان على رابية إيشــيا، مكعب من الصلــب والزجاج الحديث. بالمعنــى الذي كان يُمنَــح لكلمة «حديث» فــي الثمانينيات من القرن العشــرين. حيث بالإمكان مُراقبــة كل نقطة في الفضاء من كلّ النقــاط الأخرى، وحيث كانــت كل رائحة تنبعث، أصغر سيكار يشعل، تكتســح في اللحظة الحجمَ الضخم، وحيث يرتدُّ أدنــى همس مائة متر بعيدا، كما يحدث في كاتدرائية من العالم القوطيّ.

الأشــياء الوحيدة غيــر المُصنَّعَة كانت هــي الوجوه الضخمة المرسومة التي تتدلى من السقف بواسطة حبال من الصلب.

كان أرماندو يتصبب عرقا.

كان يشعر بالدوار.

قالت آن، وهي تكتشف وجوههم الجائعة:

- لن آخذ مقبلات.

ســارعوا جميعــا إلى الالتفــاف حول المائــدة المصنوعة من

الصفائح القديمة والزجاج المخشن، ولم يأخذ منهم الجلوس وقتا طويـــلا. لم يكن أحد منهم يتكلم. مدوا أياديهم. كانت شـــفاههم لامعة، وعيونهم براقة.

***

اشـــتدت الحرارة لدرجة خرجت معها الأفاعي من جحورها واحتمت في الظل، والساحة، وضفاف الماء.

احتمت العناكب في البرودة والظلام تحت الأسِرَّة.

الرجال، الليل، الخوف، الذكرى.

***



الفصل الثالث

جدفت جولييت القارب، لمس الرمل. ساعدت ماجدلينا على النزول وسـحبته على شـاطئ الكاسـتيو. صعدت على رصيف الميناء. كانت آن فوق الصخرة فوق الماء. صاحت:

- تريدين شيئا؟

- سآخذ مثل ما تأخذين.

ذهبت آن المقهى تبحث عن كوكا مثلجة.

عندما عادت، انبعثت ماجدلينا بالقرب منها. كانت تعلق على كتفهـا حقيبة جميلة من البلاسـتيك الأبيض. فتحتها بصعوبة. أخرجت الحصاة السوداء التي تستعملها في لعبة الحجلة.

- إنها لك.

لكن آن لـم تنجح في أن تجعلها تحفظ أسـماء خانات لعبة الحجلة.

***

لم تسمعه وهو قادم. كانت آن موجودة في الحديقة الصغيرة في زاوية الشـرفة، جالسـة على أحد كراسي المطبخ، يداها في الهواء، مشـغولة في جني ثمار المشمش التي كانت تضعها برفق في سلة من قصب تمسكها بين ركبتيها بقوة.

رفعت رأسها في الشمس.

- يداها ممدودتان، تحاول أصابعها الإمساك بالفاكهة المذهبة جذبت ثوب صدارها وانحسر عن جلد بطنها.

أمسك ليو بالسلة.

مدت إليه حفنة من الثمرات الساخنة بأشعة الشمس. عندها فقط نظرت إليه.

- طاب نهارك.

- هل هي جيدة؟

- تذوق.

أكل واحدة.

- لا تزال ساخنة. لذيذة جدا.

كانت تضع قبعة من القش بخيط أبيض. عندما نظرت وراءه أطلقت صرخة فرح.

رأت الصغيرة ماجدلينا تتبعث على الطريق الترابي ترافقها جوليا.

قفزت من فوق الكرسي على العشب. احتضنت الطفلة الصغيرة.

- تريدين حبة مشمش؟

أجابتها:

- أريد أن أشرب.

دخلتا يدا بيد إلى المطبخ، وهما تضحكان.

***

نام ليو على كرسي البحر الطويل. في ظل الفيلا. ذبذبات الحر على الرابية فوق الشرفة كانت تتحرك بشكل استثنائي. كانت مثل حلقات تتقلص. هذه الانقباضات، وهي تتقدم، كانت تُغيّر الأشجار والسقف الأزرق والكراسي الفولاذية، ثم وهي تنفصل عنها ببطء، تعيدها، بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق، إلى الحالة السابقة.

كانت أكثر من ثعبان.

كانت حيوانا شبه شفّاف بحلقات من التحوّلات.

لـو لم يكن الجوّ حـارا جدا على الهضبـة، كان بإمكانها أن تتأمل حركاتها المتوحشة أثناء ساعات.

أصبحـت الأرض خليطـا مـن الغبـار ومن قطـع الوَحل المتشقق. وكانت الشـمسُ قد افترست كل الماء. هذا الضباب المائـي الموجود في الهواء، دونما انقطاع، يجعل الماء شـفافا، بشكل مؤلم.

كانت جالسةً على الدرجات في طرف الشرفة، صحن مملوء بالطماطم ولحم الجاموس علـى ركبتيها، وهي تنظر إلى البحر بنظرة فارغة.

- آن؟

انتفضـت آن، مذعورة. كانت الصغيـرة لينا، قلقةً وهي ترفع عينيها نحوها.

- نعم، يا حبيبتي.

- خذي! لكن، قبل كل شيء، أغمضي عينيك.

أغلقت عينيها.

فتحت آن راحة يدها. أحست بشيء خفيف.

- افتحي عينيك الآن.

- رأت في يدها سنا .

لم تكن آن هيدن فقط موسيقية مشهورة، لم تكن فقط ساحرة كبيرة خالقة للعواصف، كانت امرأة غارقة في الهدايا.

***

اشـــتدت الحرارة ووصلت إلى درجة أفقدت كل شهية للأكل. وجعلت الطلب على الماء يزداد، دونما توقف.

- لقــد نفــد الماء من محل البقال. نحن فـــي حاجة إلى أحد المتفانين. يجب الذهاب إلى نابولي.

- لا أستطيع العيش من دون قهوة.

- الحر شديد. ليس لديّ شجاعة العبور.

- اسأل شارل. شارل هو الاختصاصي في العبور.

قالت جولييت:

- تعرف جيدا أني لم أعد أراه.

صعــدت ماجدلينا رادنيتزكي على الكرســـي. مدت ذراعها. كانت ترتب حبات المشمش على طرف المائدة.

- ماذا تفعلين يا لينا؟

- أرتبها وفق الحجم.

سيســـتغرق الأمر ســـاعتين ســـتكون الفاكهة بعدها قد ذبلت واهترأت.

قال ليونهاردت لآن:

- من دونك، لســـت على ما يُرام. أنا أحتاج إليك. محتاج إلى وجودك الدائم بالقرب مني، في نابولي، في الشـــقة. أنا محتاج إلى سماعك تتنفسين بالقرب مني عندما أنام.

- و؟

- أحبك.

كان موسم الهدايا. تتالت الهدايا.

ماذا نفعل بخاتم عندما نفضل أن تظل الأصابع خالية؟

كانت تفضل، بوضوح، ســـنا أو حصاة ســـوداء تهديهما إياها طفلةٌ صغيرةٌ.

***

كان الطريـــق الترابي وعرا جدا وكنت أمر على بقال كورســـو كولونا حين أذهب إلى منـــزل آن هيدن. كنت آخذ بعض قنينات المياه المعدنية، أو بعض السلطة، أو بعض الفاكهة، أمر عبر الدرج الحجري ثم الأرض المملوءة بالحصى، أتشبث بالحبل الذي أصبح جافا مثل أوراق البامبو.

كنتُ دائما محطّ استقبال دافئ.

كانت أوقاتنا متناسبة.

لاحقا توقفت عن فعل ذلك بسبب اشتداد الحرارة.

***

لن تســـتطيع أبـــدا الوصول إلـــى صيدلية الجزيـــرة. كانت محتاجة إلى دوائها. كانت تمسك بالمظلة مفتوحة كي تحتمي من أشـــعة الشمس. الإسفلت رخو. كانت تتقدم بصعوبة. كل خطوة كانت تترك أثرا على الأرض المزفتة. ثم كان الشارع يأخذ شكلا جديدا، ببطء. كأن الشـــارع، هو أيضـــا، أصبح حيوانا في طور الاستيقاظ. نوع يشبه تنينا صغيرا مزعجا. جلد شجري، يُحدث صوت خشـــب يتكســـر، أبيض على محيطه، حيث يخرج السائل الأسود.

***



الفصل الرابع

انفجـــرت العواصف. كانت لينا تصـــرخ فرحا بين ذراعي آن هيـــدن. لم تكن في الغالب ســـوى ومضـــات خارقة، من كل نوع. أشـــجارا. شـــظايا. تمزقات حقيقية حيث تبرز السماء الزرقاء الصافية. توقف المطر عن الهطول.

أصبحت الحرارة أشد وطأة.

كان ليـــو، وأرماندو، وكروبوتكين، وشـــارل يلتقون كل خميس عند ديو. كان ديو يتحدث مثل قناة كابل غير مُشـــفَّرَة. كان غنيا جـــدا، متعبا جدا، محدودا، وأميا. روحه، موهبته، هدفه الوحيد هو الســـعادة. وكان هذا يعني مشاهدة شـــيء من أفلام البورنو يســـاعده على أن يكون وفيا لصاحبته وقليلا من الرياضة وكثيرا من الحبوب المنومة، وكثيرا من المَرَح.

كنا نطلق عليه اسم جوفيال سينيل.

ازداد عـــدد الـــروس في الجزيـــرة. كانـــوا شـــبابا، أقوياء، ومافيوزيين، وأخويين، ومخدرين، وســـكيرين، وصبيانيين، وذوي عضلات، وعدوانيين.

كانوا الأسياد الكبار لساعات الليل المتأخرة.

في فيلا ضخمة تعود إلى نهاية القرن التاســـع عشر، يسكنها بالكامل روس اكتشـــفتُ البيانو. بيانو حفلات موسيقية حقيقي. من نوع بوســـيندورفر. أرسلت إشـــارة إلى جولييت- التي كانت حضرت هذا المساء معي، في حين أن آن ظلت مع ليو في نابولي. أما الصغيرة ماجدلينا فقد عادت إلى والدتها. أغلقنا، بحذر، باب

المكتبة. وكنا نحرص على ألا نجرح أصدقاءنا. لو أننا جعلناهم يكتشفون الحزن والحياء والحنين والجمال والانتظار والرقة المفرطة، لانفجرت، على الفجر، هذه المجموعة من الداخل، وكنا سنجد أنفسنا وحيدين.

ساعدتني جولييت في سحب المقعد الأصفر الذي كان موضوعا غير بعيد عن البيانو. فتحت لوحة المفاتيح وطفقت أعزف. كانت الآلة رائعة، لكنها، للأسف، كانت مخنوقة من الأثاث المحيط بها ومن حجم الغرفة ومن الستائر.

كنت قد انفصلت عن جولييت، وكنت قد غادرت إيشيا.

كنتُ مع أختيَّ الميتتين.

كنتُ في بيرغهايم.

عندما وضعت الغطاء الأسود على اللمسات، كانت قد مرت ساعة مثل حلم. كنت أحس بقلق غريب. الحزن أقدم وأكثر نقاء، في دواخلنا، من الجمال. بحثت عن سترتي من قماش الكتان وفي جيبها بحثت عن هاتفي النقال الصغير واتصلت بآن هيدن.

- وجدت البيانو. إنه بوسيندورفر.

***

أين؟

- عند الروس.

- أي روس؟

- الشباب الروس.

كانت آن متهيجة جدا. أخبرتني آن أنها لن تستطيع موافاتي في الأمسية نفسها. لأنها كانت في نابولي. كان يخرجان في تلك

اللحظة من عند أصدقائهما.

- اعذريني يا آن! لم أنظر إلى الساعة.

طلبت مني أن أزورها في الغد. وأن أهاتفها وأن أقودها بالقرب من البيانو الذي اكتشفتُهُ.

أغلقت الهاتف النقال، من جديد. قالت لي جولييت:

- لم أكن أعرف أنك تعزف على البيانو. كنت أعتقد أنك تعزف، فقط، على الكمان.

- إنهما ينتظراننا في المطعم. هل رأيت الساعة؟

كان لويجي وزوجته ينتظراننا.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. التحقنا بهما. كان الجو لايزال حارقا. كنتُ أحلم بأختيّ. كنت أنصت إليهما وهما تتحدثان. كانتا قد علمتاني الكلام. أحسست بامتلاك القوة.

***



الفصل الخامس

الشــمس تتجه نحو الغروب. إنها الفترة التي تفضّلانها معا. كل الذين امتلكوا الشجاعة وخرجوا عادوا إلى منازلهم. الماء أكثر هدوءا وانتعاشا. إنه يتسلق طول الساقين. وحينما يصل إلى المايوه، عن عادة خالصة، ترتفعان معا، بالحركة نفسها، على أصابع قدميهما.

قالت جولييت:

- إن كنت تحبينني، ناديني جوليا.

- وأنت ناديني، آنّا.

تضحك آنّا وجوليا، وتتحدثان. ثم تغطسان، فجأة، وتسبحان في عرض البحر.

تستلقي آنّا بالقرب من جوليا التي نزعت القطعة العليا من المايوه، وتستدير جوليا لعرض ظهرها لأشعة الشمس المحتضرة، أو لبرودة الجو.

أصبحت أشد نحافة.. وجهها رقيق، جسدها رياضي؛ ظهرها عريض مثل لاعبي الجمباز، وبقية الجسم عظمي وأكثر امتدادا. كانت تشرب كثيرا وتأكل قليلا.

كان لآن فخذان مستديران وقصيران. لجوليا ربلتا راقصة. كانت جوليا تكره الماضي. تعيش اللحظة. تشرب طوال الوقت، ولا تقول شيئا. لم تعرف عنها آن هيدن أي شيء.

كانت لكل منهم مملكته. للينا العاصفة عندما تكون بإيطاليا، أما آنا فلها غرفتها الطويلة المطلة على البحر التيراني، ولجوليا

الكنبة وكأس الشراب الأبيض، ولأرماندو مشغل الصلب، ولجوفيال سينال أمسيات الحشيش، ولفيليس مقاعد الكنائس، ولكروبوتكين الجبل، ولشارل كل كتاب في مكتبته. كانوا أصدقاء، لكنهم لا يلتقون إلا قليلا، وكان كل واحد مستعجلا ليعود إلى مملكته.

***

أستطيع أن أملأ الشهور التالية بعدة تفاصيل. كانوا مشغولين، مغرمين، بنائين. أقفز. أقفز. أقفز. أصِل إلى شهر مارس التالي. ثم أصل مرة أخرى إلى فصل البرد. تعيش جوليا وآنّا معا في إيشيا خلال الأشهر الثلاثة التي تكون فيها الصغيرة عند والدتها.

وفي الأشهر الثلاثة التي تكون فيها الصغيرة في إيطاليا تعود جوليا إلى نابولي طوال أيام الأسبوع. وفي نهاية الأسبوع يلتحقان بالجزيرة.

***

كانت آن قد أصبحت إيطالية بين ذراعي جوليا.

الرغبة المستعادة تُجمِّل الجسد، وتضيء المحيط وتُطهر الهواء.

كانتا تتمشيان يدا بيد. ترجعان من البحر. لم تكونا تتحدثان.

تحمل آن مناديل الشاطئ.

تحمل جوليا مجلاتها العبثية. تجران صندليهما في الغبار الحارق.

تتبعهما ماجدلينا الصغيرة، خاملة ومجترة ومهرولة ومتثائبة، وهي تغني.

كان لون الثلاثة برونزيا .

حتى جلـــد جوليا كان قد توقف عن الاحمـــرار. وكان ينجرّ، شيئا فشيئا.

***

كانت جوليا جالســـة علـــى الكنبة . من نوع شيســـترفيلد مســـتخدم ـ حافية القدمين ومكردســـة أعلى ســـاقيها، كأس شـــراب في اليد، وهي تأكل الفول السوداني. قالت ماجدلينا بصوت خافت:

- قط صغير.

قط صغير جاء من الشرفة أدخل رأسه في الغرفة.

قالت ماجدلينا :

- هل رأيت؟

- كم هو جميل!

فتحت آن الباب على مصراعيه. بسطت الفوطة على الأرض وجلست متقرفصة أمامه.

قالت:

- أنت جميل.

سألت ماجدلينا :

- هل رأيت العلامة السوداء؟

سألت آن:

- هل تظنين أنها علامة؟

***

كانت جوليـــا تتناول الشــراب الأبيض، تقــرأ المجلات التي اشــترتها من منطقة كورسو كولونا، وتأكل الفول السوداني بينما تصدر ماجدلينا تأوهات متعبة وتتحرك في نومها.

كانت آن جالسة على البلاط في الركن الأكثر برودة في الغرفة، في زاوية المدفئة، تدير ظهرها للصخرة البركانية الســوداء، في يدها مقطوعة موسيقية مبسوطة.

الفصل السادس

مطر مائـــل وكثيف يحجب رؤية الخليج. عزف الســـكان عن الخـــروج من منازلهـــم. ذات صباح، وأنا راجع مـــن البريد (كان البريد يوجد في الشارع المؤدي إلى الميناء) في الميكروتاكسي، في ضباب من الحرارة والعاصفة، لمحت الصنوبرة القديمة المتشبثة في الصخرة فوق الشـــاطئ التي تدل على بيتها. أوقفت الدراجة النارية التي كانت تجرني.

كان المطر كثيفا، بحيث كنا بالكاد نستطيع رؤية الطريق.

كنت أحمل معي دائما جِرابا (ســـرج بجيبـــين كبيرين) أضع فيه كل شيء. أبعدتُ الكتب، باحثا عن هاتفي النقال. وأنا تحت السقف الخشبي الصغير للميكروتاكسي، اتصلت بآن لأتأكد أني لن أصعد عبثا. كنا قد أصبحنا صديقين. عندما كانت جوليا في نابولي كنا نلتقي كثيرا. كنت أحضر لها السجائر.

***

في الصباح، كنا نشرب القهوة في صمت. ثم أعود إلى بيتي ماشيا.

مـــرات أخرى – وبمـــا أنه لم يكن في الإمـــكان الوصول إلى ترافيرســـا شـــامبولت بالعربات- كنت مضطرا إلى المرور على بيتزا دي بيسكاتوري. كان الأمر يتطلب أن تمطر السماء مدرارا أو أن تكـــون الرياح قوية حتى أتخلى عن لذة الجلوس على ضفة الماء وأن أشـــرب فيها شـــرابا مثلجا. كانت هي من يأتي للقائي، في كثير من الأحيان، مساء.

***

عندما تكون آن هيدن ضائعة في غنائها، تظل جالسة، بشكل يثير الفضول. جسمها مائل تقريبا إلى الخلف. كانت تبدو رائعة مثــل امرأة لا تهتم أبدا بالانطباع الذي تحدثه. كانت تبدو كأنها ستختفي فجأة، تسقط، تطير، تقفز من فوق الصخور في الميناء، تغوص في البحر.

***

كانت امرأة، تستسلم بشكل كامل، لجوعها، لغنائها، لسيرها، لعاطفتها، لسباحتها، لقَدَرِها.

في هــذه الحالات لم أكــن أزعجها. كنت أكتفــي بإلقاء التحيــة عليها. أجلس أبعد منها بكرســيين. أطلب شــرابا مثلجــا. لم نكن نتحــدث كثيرا. كنا نســتطيع ألا نتبادل أي كلمة. خلال ســاعة كنا نراقــب الصيادين يدخلون مراكبهم، والســياح يلتحقون في الزوارق بقواربهم الشــراعية، قرص الشــمس يهبط على الكاستيو ثم يهبط بالتحديد على طول قلعة تيبير، على كابري.

***

- لمــاذا أصبحتْ إليان هيدلشــتاين، ابنــة كاثوليكيةٍ من بروتاني ويهوديٍّ روماني، آن هيدن؟

- لا أعرف.

- من أجل أن تختبئ؟ لأن على اليهود أن يختبئوا؟

- لا. لا أعتقد أن على اليهود أن يختبئوا. ولا أظن أن الاختباء يحميهم.

- إذن لماذا؟

- أول رجل عشت معه كان متسلق جبال.
- وأي علاقة؟
- كان قد تسلق الهيدن بيك. وهو العمق، هو الذي استمتع بتحويل هيدل إلى هيدن، ثم عمدني.
- هل أحببتِهِ؟
- أجل.
- لماذا هجرتِهِ؟
- ولماذا أهجره؟ لقد مات.

***

كانت آن هيدن تتصرف أمام لوحة المفاتيح على طريقة مارسيل ميير لمن استطاع رؤية هذه النابغة تعزف قبل رحيلها المفاجئ. كانت يدها اليسرى قوية جدا. لكنها تغش في المقطوعات، تبسط دائما إلى نوع من كانت النتيجة لا تضاهى.

كان الأمر عنيفا بشكل لا يتصور.

كانت تبدأ بقراءة المقطوعة، بعيدا عن البيانو، ثم تضعها. تجلس أمام لوحة المفاتيح. بشكل مفاجئ. تقدّم كل شيء على شكلِ مختصر مفاجئ دوّار. لم تكُن تعزفها. كانت تعيد ارتجال ما قرأته، أو ما أرادت فعلا الاحتفاظ به مما قرأته. تقلب كل شيء باحثة بقلق عن الموضوع التائه متقصية الموضوع الأصلي في حد أدنى من الإيقاع.

كان يحصل أن تتيه، أحيانا، في منوّعات شرقية طويلة تمتد فقط لتسمح للموضوع بالعودة مثل الأصل وكانت حينها تدع لوحة المفاتيح وتنهض بطريقة فجائية، قلقةً، تتابع الموضوع في

الصمت، تنطلق بعيدا، تخرج إلى الحديقة، تتمشـــى، وتتمشـــى، وتتسلق الصخور. كانت عبقرية

كانت فنانة، هندية ، بصيغة مَا.

***

أحيانا، كانت تجلس في ردهة فندق. في أحد صالونات فندق المور، أو في بار نابولي في حالة ما إذا وجدت قليلا من الهدوء.

كانت تحتل كرســيا مريحا، بعيدا عن الباب، في مكان يسمح لها برؤية الناس يقبلون فجأة ويحتلون المكان أمامها.

بهذه الطريقة كانت تنظم أفكارها. أو تقيم الأفكار الســمعية في داخلها، أو تقبل بتدوين أفكارها. كانت تجرب خطوطا نغمية في صمت، قبل أن تعشقها، تدونها، أو تلغيها.

***

كانت امرأة معقدة.

بالنسبة إلى ماجدلينا كانت سيدة العواصف ساحرة عميقة.

في عيني ليونهاردت، كانت آن فنانة ناضجة بشكل رائع، لا تأبه بالمحيطين بها، قوية، متوحشة، أو، على الأقل، أقل ألفة، ووحيدة.

في عيني جوليا، كانت جســدا كبيرا لطيفــا، صامتا، مثيرا، مطمئنا، كله عظم، وهروب، وعزلة.

فــي عيني جورج كانت طفلة صغيرة أبية، عدوانية شــيئا ما، دائمة الحذر، تتأثر لأقل شيء، هشة، قلقة، غامضة.

في عيني كانت موسيقية رائعة. نادرا ما سمعتها تعزف. لكني كنت أفعل كل ما في وسعي لأجعل ذلك يحدث.

***

يحدث أن نسـمع، فجأة، في أعماقنا، تتغنى ألحان لم تُسْمَع قطّ من قبل والتي لا نؤلفها. يجب تدوينها في الحال. بعدها قد نشـتغل أو لا نشتغل. هذه الدعوات ليست لأحد. وبشكل خاص هي ليسـت لأولئك الذين ينادى عليهم (لأنه يجب الاعتراف بأن كل الذين يمكنهم أن ينادوا، في حالة مناداتهم، موتى).

جان داسيك هارباً مع صوفيا كورّي في هامبورغ.

آن هيدن هاربةً مع ماجدلينا بولينا رادنيتزكي إلى هيركولانوم.

- اشترت آن من أجل أعياد الميلاد كلبا للينا. كان من فصيلة فوكس-تيريـي. أطلقت عليه آن ولينا اسـم ماتـرو. لم يكن من حقه الذهاب إلى نابولي. كان يظل في الجزيرة يراقب البحر أو الطريق أو أطراف الشرفة.

***

بمجرد وصولهما اشـترتا سمكا في الميناء ثم صعدتا الشارع للذهاب إلى السوق. اشترتا فاصوليا بيضاء، ولحم عجل. تناولتا الغداء على الشرفة. ثم حانت قيلولة لينا. نزعت جوليا صندلها. ظلت بالسروال القصير والقميص.

***

اسـتيقظت لينا، نهضت، على الفـور، ركلت الكلب النائم في بطنه.

هرب ماترو وهو ينبح.

تلقت صفعة على مؤخرتها من طرف جوليا في المقابل.

بكت.

سألتها جوليا:

- لماذا أنت سيئة؟

أجابت الصغيرة، ببطء:

- . أنا لست سيئة.

- إذا ضربت الكلب، فسأضربك.

ابتعدت ماجدلينا رادنيتزكي وهي تبكي ممسكة دميتها بين ذراعيها.

استقرت أمام مدفأة الصالون في مكان آن.

تركتها جوليا تلعب في ركنها.

أحاطت مأدبتها الصغيرة بالشموع التي أخذتها من فوق الموقد.

كانت تدندن بالغناء ولا تقطع غناءها إلا من أجل التحدث مطولا مع دميتها.

***

ظهر شعاع شمس.

جلست جوليا على الدرجة قبل الأخيرة، أخذت معها متاع الغروب، فول سوداني، زيتون، زجاجة شراب مثلج، نظارات شمسية، شغل تريكو لم تشتغل عليه أبدا.

جلست وساقاها متدليتان.

سحبت فستانها إلى أعلى ولعبت برجليها في ماء المسبح المطاطي الشفاف الذي يعود إلينا.

الرأس ملقى إلى الخلف، ممنوح لأشعة الشمس الأولى، وتركت جسدها يَسمَرّ.

في اليوم التالي وجدتا في السوق حلويات صغيرة من القِمام الآسيّ.

ماجدلينا، جميع أطراف أصابعها سوداء، يصعب غسلها، بسبب تناولها للقمام الآسيّ في الغذاء، قررت التوجه إلى اللعب على الربوة.

وضعت جوليا المرهم على شفتي الصغيرة التي شققتهما الشمس الجديدة.

آن أعدّت القهوة.

دخلت ماجدلينا الصغيرة إلى البيت منهكة. قضت ساعة كاملة في السير على طول منحدر الربوة بين الصخور، في العشب الجديد، وفي بقايا القش، كي تنزل على الشرفة وهي تصرخ من الفرح. كانت حارقة ومخدوشة. نامت واقفة. أخذتها آنّ بين ذراعيها، وحملتها إلى الصالون حيث كانت جوليا مستغرقة في قيلولتها، مُحاطة بسقط المتاع من المجلات البليدة والسجائر والزيتون والفول السوداني والفستق الحلبي والشراب. وضعت الصغيرة بين وسادتين.

مسحت آن جبينها الذي يغطيه العرق ورأتها تستسلم للنوم دفعة واحدة، أمام ناظريها..

راقبتهما نائمتين على الكنبة البيضاء في الصالون.

نزلت إلى المرفأ، انتظرت الباخرة، صعدت على الجسر، ذهبت إلى نابولي لملاقاة ليو.

***

كان جسد لينا كله أزرق.

وكانت جوليا تصرخ.

كانت في إطار الباب، تحمل بين ذراعيها الصغيرة التي توقف تنفسها.

شـــرحت الجثة. وثبت أن ماجدلينا رادنيتزكي ماتت في سن الثالثة، مختنقة بحبة فول سوداني.

بعد المستشفى، والتشريح، أرسلت الصغيرة إلى بيت الدكتور رادنيتزكي.

هربت جوليا.

الفصل السابع

عبثا انتظــرت آن جوليا طوال الليل. وأخيرا اســتطاعت أن تكلمهــا على الهاتف. ذهبت لتأخذها رغمــا عنها من الجزيرة، حاولت تهدئتها، لكن جوليا لم تكن تريد العودة معها عند ليو.

استقلت آن الباخرة وحدها إلى نابولي.

كانت الشمس تغرب عندما وصلت إلى الشقة.

دخلت بهدوء إلى الغرفة التي حبس فيها ليو نفســه. قالت له إنها ســتظل مســتيقظة مع ماجدلينا. ستمضي الليل في غرفة الصغيرة. حرك رأسه موافقا. سارت في الممر. فتحت البــاب، أعادت إغلاق الباب من دون أن تنظر إلى شــيء في الغرفة.

جثمت بالقرب من الســرير، ســقطت على ركبتيها، لم ترفع عينيها، نظرت، فجأة.

كان ألم فظيع يصعد في كيانها، من دون أن تُغيثها أدنى دمعة. وضعت رأسها بالقرب من وجنة الطفلة الصغيرة.

بعــد مضيّ وقت، دسّــت يدهــا تحت اليد الصغيــرة للميتة الصغيرة.

كان ألمُها رهيبــا. لم تكن تربطها أدنى صلة قرابة بالصغيرة. ومع ذلك كان أعنف ألم يمزق نســيج حياتها. الغريب هو أنها لم تــذرف دمعة واحدة. ولا حتى شــهيقا. ولا حتى أي انقباض في الصدر، لا شيء.

ألم من دون قرار، مفعوله الوحيد هو الأرق.

ظلـت مسـتيقظة لأيام، من دون أن تنزع ثيابها، من دون أن تنام، من دون أن تبدل ثيابها أو تستحم.

حتى الكلب ماترو نأى بعيـدا عنها، ظل في الظلّ، كان الجو حارا جدا، الرأس مملوء بالقلق.

دفنت ماجدلينا من دون أن تحضر جوليا.

***

لم تستطع آن هيدن الوصول إلى الشرفة الثانية. كانت جالسة علـى الأرض في الظل، متكئة على الجدار الحارق لكوخ الحمار. وهي تنظر إلى زجاجة الماء الفارغة أمامها.

على سـطح زجاج القنينـة الأخضر والمحـدوب، كانت ترى انعكاس صورتها المُشوَّه.

كانت ترى امرأة عجوزا تتصبب عرقا.

كانت ترى شـعرها الطويل الأبيض المنسـدل واللامع. كانت تبـدو ثملة برغم أنها لم تشـرب، منذ عشـرة أيام، سـوى الماء المعدني، الذي كانت تصبّه في قنان زجاجية كي يكون أكثر برودة حين تخرجهـا من الثلاجة. أغلقت عينيهـا وغفت. رأت حلما. بكت في الحلم. كانت دموعها التي سـالت على خديها هي التي أيقظتها في الطريق الوعر.

***

لم تكن جوليا تجيب عن اتصالاتها الهاتفية.

لم يكن أحد يعرف، تحديدا، أين تقيم ولا أين تنام جوليا.

حتـى المقربون منهـا - المقربون القدامى - كانـوا يجهلون أين اختفت.

كانت آن ترتدي ثيابها في شقة نابولي.

كانـــت تبحث عن جوربيها الصغيرين علـــى الأرض. التقطت أحدهما عند قدم الكنبة.

ســـمعت خلفها صوت ليو الممزق. لـــم يكن صوته المعتاد. كان صوتا غليظا طفوليا يرن وراءها:

- لا تلبسي ثيابك!

اســـتدارت، فقط، لتـــرى. كان في واقع الحـــال، يبكي. وكان يعبث، مثل طفل، بالغطاء، ويمسح عينيه بالشرشف.

جلس متكئا على وسادة.

- لا يمكنـــك أن ترحلي بهذه الطريقة. لم أعد قادرا أن أراك ترحلين. لم أعد أتحمل قط رؤيتك وأنت تلبسين ثيابك في الفجر وتنطلقين إلى جزيرتك.

- نعم.

- أنا في غاية العزلة.

- أعرف.

وضعت سروالها الداخلي، وشدت أزرار سروالها الجينز. قال بصوت خافت:

- آنّ؟

- نعم.

- لنرحل معا.

لم تُجبْ. ثم:

- نعم.

ثم:

- ربما.

قال من جديد:

- نستقل زورقا.

- نعم.

- لنرحل مثل لصَّيْن.

- نعم.

- نصعد إلى الزورق. ونتوجه رأسا إلى المطار. ونصل إلى حيث تشائين. أشتري كل شيء. وألبسك من جديد.

قالت، وهي تنتهي من إقفال أزرار قميصها:

- تُلبسني من جديد.

- في هذا اليوم. نلتقي فقط بعد الظهيرة. نلتقي في رصيف الركوب في الساعة الثامنة، أمام بائع التذاكر.

جلست على حافة السرير وربطت زمام حذائيها الرياضيين البيضاوين.

قالت أخيرا:

- لا.

- لماذا؟

- لأنه سيكون لدينا الذكرى نفسها في كل مكان. وفي كل مرة سيُعيد وجهُ الآخر إحياء معاناته. هل ترغب في معرفة ما أفكر فيه؟

- لا أريد.

أخفى رأسه تحت الشرشف.

لكنها، مع ذلك، قالت:

- أعتقــد أنه ليس فقط يجب ألا نرحل معا. أعتقد أنه ليس فقط يجب ألا نعيش معا...

صرخ من تحت الشرشف:

- آن، لا تتفوهي بما أنت مستعدة لقوله!

- أعتقد أن علينا أن نفترق.

توجهت إلى الســرير. قبّلتُ الرأس المخفية تحت الشرشف. حين وصلت إلــى باب الدخول كان لايــزال يصلها بكاؤه. تركت المفاتيح على مرمر الصوانة.

الفصل الثامن

أمســـك صياد بيدها فقفزت في الـــزورق ذي المحرك. نزلت جنوب بروســيدا. كان الدكتور رادنيتزكـــي قد دعاها إلى الغداء في أحد مطاعم بروسيدا.

بلعت ورقة سلطة.

بدأ ليو بالدعوة إلى الأكل:

- يجب أن تأكلي.

كانا يجلسان متقابلين.

- أرغم نفسي على الأكل.

أكلت ورقة أخرى من السلطة

. شـــكرا آن يجب أن تأكلي. أنا لا أفهـــم لماذا آكل بهذا القدر برغم أن....

- هل يمكن أن نتحدث عن شيء آخر؟

- لماذا؟ أتحدث ببرود، وبطريقة تقنية عما يشغلنا. في البداية كنتُ طبيبك من قبل.

- أظن أني سأغادر هذه الجزيرة.

- وبعد؟ قد يكون ســـببا لضرورة اكتساب عضلات من أجل حمل الحقيبة. سببا لامتلاك فخذين قويتين للقدرة على المشي في الشوارع!

***

لم تجرؤ على الحديث عن ألمها أمامه.

- لا يمكنك أن تخمن، ليو، كم أني تعبٌ من ترددي. تعبتُ من نفسي.

أمامهـا وضع رجل عجوز باب خزانة عتيقة من الأكاجو على قائمتين خشبيتين. أفرغ سلة كبيرة من التفاح ومن الخضر ومن الليمون ودجاجتين عاريتين.

مر أحد رجال الدرك.

قال:

- أعتقد أن علينا أن نستقر في المكان نفسه. يجب علينا أن نتزوج. يجب أن نعيش معا.

أمسك بيدها.

- أنـت مُحطَّمـة. أنا محطم. لا يجـب المراهنة على من هو محطم كي يصلح محطما. يجب نسيان كل هذا...

قال وهو يضحك استهزاء:

- نسيان كل هذا...

واصل وشوشته:

- مع أنك كنت تحبين الصغيرة جيدا...

حينها لم تستطع أن تتمالك نفسها. انهارت باكية، لأول مرة، أمامه.

ثم اجتاحه الضيق.

اقترب من الموت.

انفجر، فجأة، بعنف، في تشدد وشكوى وعنف وظلم.

***

لم يَعُد يتذكر جسد ابنته في الموت. كان يتسول التفاصيل. هل أصيبت بجراح أم بِرُضوض؟ هل كانت جميلة كما كانت وهي حية؟ هل كان فمها مفتوحا؟ أراد أن يعرف، أكثر، ما لم يستطع رؤيته، حقيقة.

عندمــا ينحصر الحدث في محنته، لا يســتطيع أي عزاء أن يفعل فعله.

لا يمكــن لأي مخــدر، أو قهــوة، أو دواء، أو منــوم، أن يقدم مساعدته.

يجب على الروح أن تســتدير نحو الألــم، ومن الضروري أن تقوم بذلك وجهــا لوجه، أن تعطيها وقتهــا، وعمقها، وضيقها. يجب أن تجره بعيدا عن الجسد. يجب أن تغذيه بشيء آخر غير نفســها. يجب إغراؤه، تقديم طعم له، والتضحية بشيء من أجله كما لو تعلق الأمر بكائن.

قررت آن هيدن التضحية بالفيلا المطلة على البحر.

***

في بعض الأحيان لا تستطيع أي وسيلة التخفيف من الحزن. الوقت الذي يمر يزيد منه.

كانت تحب جوليا.

علمــت أن جوليا تعيش في شــقة في نابولــي. كانت تعطي محاضرات للسياح. قدُتُها ذات مساء عند جوليا.

– لكن جوليا لم تعد للعيش مع آن هيدن.

– كانتا تتبادلان النظرات. أخذت جوليا وجه آن بين راحتيها.

– وداعا.

***

غادرت جوليا الجزيرة. لم تصدر جوليا أي إشــارة تدل على أنهــا حية. لم تجب على أي من اتصالاتها الهاتفية. على أي من الرسائل التي بعثتها آن. لم تأت أبدا إلى تيلي.



الفصل التاسع

قبر ماجدلينا بولينا رادينتزكي في نابولي.

كانت آن تزوره، وحدها، وتحلم.

كانت الصورة نفسها المهدئة، العذبة، والتي تعود باستمرار.

كان المشهد، تقريبا، هو نفسه، دائما: في المساء تستحمان، قبل تناول العشاء.

كن جميلات، ثلاثتهن حول المائدة، أمام صحونهن، كلهن نظيفات، منتعشات، شعورهن مبللة، وملابسهن نظيفة.

***

كان جورج روهل سعيدا، أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها.

إنها عائدة.

***

خلال فترة ما بعد الظهيرة نظّف كوخ غومبيندورف كما فعل السيد ديلور بالممسحة والإسفنجات وماء جافيل، كل النوافذ كانت مفتوحة.

قالت آن، في الهاتف، لجورج:

- عندما رأيت والد ماجدلينا للمرة الأخيرة وبعد أن أخبرته بأني سأترك الفيلا وأغادر الجزيرة، لا أقول إني رأيت بهجة في عينيه، ولكن الأمر عداء يقترب من البهجة.

كان يبدو عليه، في آنٍ واحد، وكأنه يكرهني وأنه في غاية الارتياح. كان راضيا لأنه لم يعد يوجد حوله من يشهد على ألمه. كان في أشد الارتياح.

ربما كان من الحزن الشـــديد بحيث لم يعد يستطيع سوى أن يظل وحيدا.

ربما هو نوع من الجُبْن.

كان تعبا من دوره كهاوٍ للمآسي، والأرق، والأوبرا، وكونه زوجا هجرته زوجته، وأبا لطفلة ماتت، وعشيقا لامرأة إشكالية أحبت هذه الطفلة أكثر مما أحبته هو.

-«خمنت الأمر منذ مدة طويلة. لقد كانت هي من تحبين من خـــلال حبك لي. كان الأمر باديا للعيـــان. أدركتُه على الفور. لم تكوني تحبينني.»

كانت ســـتزور قروية ســـان أنجلو العجـــوز. تحدثت في بضع كلمات عن موت الصغيرة.

لم تقل أماليا شيئا.

عهدت إليها آن بالكلب ماترو، الذي أحضرته معها.

أحنت أماليا رأسها، وهي تتنهد.

قالت لهـــا آن، بهدوء، إنها ســـتغادر الجزيـــرة. وضعت على الطاولة مجموعة مفاتيح.

أدارت العجوز رأسها، وهنا، أيضا، لم تقم بأي تعليق.

بعدها، تناولتا قليلا من شراب بطعم الليمون. تحدثتا، خلال فترة طويلة عن طفولتهما فـــي قرى صغيرة، كانت هي الأخرى، في نصفها، موانئ.

قالت آن:

- لم أعرف أبدا كيـــف أمكن لماما أن تعيش هنا خلال فصل الشتاء. كان جدي، لأمي، هو الذي شيد المنزل...

- من أجل أخته؟

- لا، بل من أجل نفســـه، على حدود الكثبان. بدأ الأمر عبر ثلاثة أعمدة إنارة تضيء الطريق المزفتة المغطاة دوما بالرمال. ما إن نصل إلى العمود الثالث حتى يبلع الليل كل شـــيء. كان صوت الأمـــواج هو الذي يقود خطاي حينما كنت صغيرة. في الشـــتاء. حينما كانت السماء عبارة عن سحابة. لا بد أنك تعرفين هذا؟

قالت أماليا:

- نعم، يـــا ابنتي. هذه الجزيرة في معظـــم الأوقات محتواةٌ، بشكل كامل، في سحابة.

- حينما كنت صغيرة أتذكر أني كنت أساعد نفسي بخشخشة خطاي على رمل الطريق المعبدة حتى لا أتيه في الليل.

- آه!

- وما أن يمحى الصوتُ وتبدأ قدمي بالضغط على العشـــب الرخو، ومـــا أن تغرق في الرمل الرطب، فهـــي الدليل على أني غادرتُ الطريق الصغير الذي يقودني إلى بيتنا. ينسدل الظلام، فأبدأ في الإنصات لأذني على الطريق.

- يا صغيرتي، أحبك.

بســـتان الخُضَر أمامهما لم يكن سوى غبار. كانت فيه بعض الأغصان الخشـــنة والعارية. معظم النباتات اخترقت في الشهر الماضي.

***



الفصل العاشر

كانت العلب المملوءة بالكتب والمقطوعات الموسيقية مجموعة في الصالة، قرب المدفأة. دخلت إلى المطبخ.

- آن!

كانت تقلب قطع باذنجان سوداء في طنجرة ضغط حديدي.

أدارت رأسها ناحيتي.

وقالت هامسة:

- نعم؟

لكنها لمحت نظرتي.

قالت، وهي تصرخ:

- شارل، ماذا هناك؟

كانت قد استشعرت كل شيء. فجأة أصبحت عدوانية. اتسعت عيناها. وضعت الملعقة الخشبية على آلة الغاز.

أخذتها بين ذراعي وأنا أقول :

- إنها والدتك.

مثل قطعة مطاطية تتمدد فجأة، غادرت ذراعي، المطبخ، الحديقة، وجرت بأقصى سرعة نحو الرابية.

***

بعد مضي بعض الوقت، توقفتُ عن ملاحقتها في الدغل.

عدت نحو المنزل.

شممت رائحة الحريق الفظيع قبل أن أدخل.

وضعت بقايا الطعام الذي احترق في طنجرة الضغط في المغسلة.

كان الفاكس لا يزال على طاولة المطبخ.
كان يحمل عنوان فندق المور.
سطران غليظان من الحبر الأسود: توفيت والدتك، بهدوء، أمس الخميس في المساء. فيرونيك.
يشير العنوان إلى رقم فاكس الصيدلية.

***

الشرفة مملوءة بالأواني الخزفية الفارغة. تجلس أمام البحر.
دخلت إلى الكنيسة الصغيرة في ميناء إيشيا. جلست على مقعد من القش أمام الشباك الحديدي المصهر الواطئ والأسود الذي يفصل عن الخُورُس.
ركبت القارب. جلست على الكرسي الخشبي على الجسر.
مرت من أمام سانسيو كاتوليكو، أفيرني، بوسيليبي، فيا بارتينوبي.
مرت من أمام الفيلات المضاءة في الليل، على البحر.
تجلس في الكنيسة الصغيرة في بروتاني. تجثو على ركبتيها أمام المركع الصلب. كان من الخشب القوي.
وضعت يديها على معصميها.
ثم وضعت رأسها فوق يديها.
كانت تحلم.
حلمت.
حلمت بوالدتها ثم انبثقت، على حين غفلة، من الأشياء التي لم تكن تهمها. حلمت بأحلامها وبجوليا وفي حياتها في الجزيرة وفي حياتها المتوحدة، من جديد.

صلت من أجل ماجدلينا رادنيتزكي ومن أجل مارت هيدلشتاين المستلقيتين جنبا إلى جنب في عالم الأموات.

***

تقف فيري أمامها، صارخة، شريرة، متهجمة، عنيفة:

- تعرضت لنوبة منذ خمسة عشر يوما!

- كان عليك الاتصال بي.

- لم تشأ أن تعرفي! لم تعد تستطيع الكلام.

- وكيف استطاعت إخبارك بعدم رغبتها في أن أعرف الأمر؟

- توقفي من فضلك. والدتك كانت تتكلم بطريقة سيئة. أنت تعرفين...

كانت كمن كان على وشك الانفجار. ترفع عينيها مذعورة، تتأمل السقف. وتضغط على شفتيها البائستين المشوهتين...

- لا تقولي لي.

- كما لو أنها كانت ستُصدر صرخة، الصراخ باسم ما، لكن لا شيء كان يخرج...

لا تقولي لي، يا فيري، لا تقولي لي. أشكرك، أشكرك على كل شيء.

وسكتت.

بعد مضي بعض الوقت، التقطت يدي فيري. وقالت لها بصوت خافت:

- إنني، في الواقع، مثل ليو بالنسبة إلى لينا. لا أريد أن أعرف.

***

ذهبتُ إلى بيت العجــزة لتحية المرضتين اللتين تناوبتا على البقاء إلى جوار والدتها في آخر لحظات حياتها.

كررت ممرضـــة الفترة النهاريـــة كلام صديقتها الصيدلانية نفسه.

- هكذا أفضل. والدتك كانت تريد أن تموت. كان ذقنها يظل في الهواء، نظرتها مملوءة بالفظاعة.

ذهبتُ لتحية ممرضة الدوام الليلي التي، من حسن الحظ، لم تقل شيئا وقبلتها.

عندمـــا وصلت أمام فنـــدق الميناء التقت جـــورج المضطرب: تغلب على خوفه. امتلك الشجاعة للمجيء إلى بروتاني من أجل حضور مراسم الدفن.

كان مجرد هيكل عظمي. أنيقا، متشحا بالسواد، ويضع على رأسه قبعة جلدية سوداء.

قالت، آمرة:

- أحضر أغراضك.

- لا.

قالت له:

- تعال لتنام في البيت.

- لا. لا يمكن أن تعرفي. أنا في أسوأ أحوالي بسبب وجودي هنا، في القرية.

- تعال.

كان يهز رأسه رافضا وهو يبكي بهدوء. اقتربت منه آن هيدن. أمسكت يده وهمست:

- صديقي، أنا الآن محتاجة إليك.

ذهب لإحضار حقيبة سفره.

***

- جاء توماس ليحضر مراسم الدفن.

- من أخبره؟

قالت فيري:

- أنـا. لقد عاش معي. عندما رحلتَ جاء عدة مرات. لم يكن «يجيد القيام بواجبه»...

- لكن قليلا، على أي حال.

- كان يأتي ليبكي.

- شككت في الأمر.

- تؤاخذينني؟

- أشفق عليك.

- للحقيقة، إني أشفق على نفسي.

***

الصخور رمادية داكنة. الماء الذي يزيحها من الرمل ويحركها أصفـر. يحل الليـل. يواصل البحر صخبه وهـو يعوي من دون توقف. أغلقت النوافذ المطلة على البحر.

نزلـت. ذهبت تقبل جورج في الأسـفل. إنه فـي الصالون. مضطجعٌ في سرير والدته، ويُشاهد التلفزيون.

- جيد؟

- ليس على ما يرام.

تناول شـرابا. عدل من وضعيته، في الدفء، تحت الأغطية.

في ملابس نومه. يضحك.

قال لها:

- تشجعي.

حل الليل.

غادرت المنـــزل، منتعلة الحذاء عالي الكعـــب، ترتدي معطفا واقيا أصفر ومتشحة بشال حاكته السيدة هيدلشتاين.

تلتحق بالميناء عبر جبهة البحر.

تتوجه نحو المطعم.

كانت الرياح عنيفة. دارت بسرعة حول ساقيها.

تراهُ بعيـــدا على الرصيف. وصل منذ فتـــرة، في الليل، وهو يسير ذهابا وإيابا.

البواخر غير المضاءة كانت تتصادم.

لم يقبلا بعضهما. ســـبقته. فكرت في نفســـها وهي تمشـــي أمامـــه: «أنا مع هذا الرجل الذي انطفأ فجأة داخل عقلي ذات يوم من أيام ديسمبر في منطقة شوازي-لو-روا» لكنها قالت:

- كان عليك أن تدخل المطعم. الجو بارد.

- لم أكن أعرف ما ترغبين فيه...

- يمكن أيضا، وبكل بساطة، أن ترغب في شيء.

جلسا قرب النافذة، لم يسألها عما تريد أن تتناوله. طلب من أجله أسماكا (سمك موسى). وطلب شراب التفاح.

أما هي فاختارت سرطان البحر والسلطعون. وتريد شرابا.

قال لها إنه يريد أن يتحدث.

وتكلم.

لم تكن سوى شكوى طويلة تركتها تدندن بالقرب منها.

تركته يتحدث، من دون اعتراض.

قالت في نفسها: ألَمْ يرغب في أن يراها تفتح فمها وأن تفكر وأن تعيش وأن تسمي شيئا.

تحدث توماس :

- ولا كلمة واحدة على هاتفي النقال. هاتفك النقال كان خارج نطاق الخدمة. لا شيء، عدا طرد بريد في مكتبي. حتى الجاكت الجلدي، حتى معطفي، بدلاتي، قمصاني، اختفت. لا شيء. لم أتصور يوما أنه في إمكان أحد التصرف بالطريقة التي تصرفت بها. كل ما عشناه معا لم يعد يعني شيئا. لا شيء. دخان في السماء. لن أقول لك كم هو مُهين... عندما فتحت الطرد: لم تكن توجد فيه رسالة منك. هذا هو الشيء الذي بدأ بتدميري. أردت أن أشتغل لكني لم أستطع. ذهبت إلى مكتبك. عندما أخبرني رولاند أنك لم تعودي تشتغلين منذ بداية يناير فهمت أن كل شيء قد ضاع. ذهبت لأشرب. تصوري: لم تعد لك قيمة. لم تكن لك قيمة من قبل. لم يكن لك وجود. أنت مثل سمكة بعيدة عن الماء. تختنقين من دون أن تفهمي. الأمر قاسٍ جدا لأنك لا تموتين مباشرة. كنت أموت كل يوم، أكثر في الفراغ. في كل ساعة أمامي كان الهواء يوشك أن ينقضي. وفي كل ليلة كان القلق أقوى وأقوى. كل شيء، المنزل، المرأة التي كنت أحبها منذ أكثر من ست عشرة سنة، المستقبل الذي تخيلتُهُ من دون أن أكتشف الأمر، والعادات، والسهرات، لا شيء يوجد من هذا... لا مِنْ أثر يحمل الدليل على أن كل هذا كان له وجود... لم يكن في

إمكاني أن أشـــتكي بصفة قانونية. كنت أدفع ثمن الخادمة وثمن التسوق وكنت أدفع ثمن التسليمات، وأدفع ثمن السفريات. حين وصلتُ إلى حياتك كان المنزل في عهدتك.

كان توماس معجبا باشتكائها.

كانت آن تمص قوائم السلطعون.

كانت تفكر في نفسها: «اضطر إلى أن يستشير مُحللا نفسانيا كي يعشق أن يتذكر، إلى هذه الدرجة».

بدا أنه يعيش من جديد وهو يعيش حياته من جديد.

كان يُومئ.

- أريـــد إدخال المفتاح في القفل. المفتاح غير مناســـب. أحاول مرة أخرى. مســـتحيل. أخفض عيني: القفـــل جديد. أعتقد أني أصبح مجنونا. أتراجع على الرصيف. أنزل على الطريق المُعبدة. أنظـــر إلى المنـــزل. إنه منزلنا. أذهب للبحث عـــن القفل المجاور. «ولكـــن القفل جديد، يا ســـيدي. أنا الذي وضعتُــهُ. - آه!- لماذا؟ هذا المنزل ليس في ملكية الســـيدة التي تقيم هنا منذ ســـنوات؟ بلى. بطبيعة الحال. إنه منزلها. لكن، هنا أقطن...- لا، ســـيدي، لا أســـتطيع أن أكســـر قفلا وضعتُهُ للتوّ.» دققـــت الباب المجاور. سألتُ: «هل رحل سكان المنزل؟- نعم، سيدي، أفُرِغ المنزل. - أثناء عطلة نهاية الأسبوع؟- لا، سيدي، خلال كل أيام الأسبوع الماضي. ســـيدتكم كانت هنا. حدث هرج ومرج رهيب. المالكون الجدد أتوا إلى هنا لزيارتنا في بادرة عن حسن الجوار. إنهم من بروكسيل...

استدارت آن في اتجاه النافذة.

كانت تتناول في بطء شرابها وهي تنظر إلى الميناء، السواري

والفيلات في الليل.

- عشـت أشهرا قاسية. اسـتقررت في غرفة فندق مريحة، لكنـي كنت أمقتها. كنت أفعل كل شـيء لكي لا أصعد إليها في المسـاء. كنت أشـرب. كنت مرعوبا من حياتي، منك، من جميع النساء، من الهجر، مني أنا أيضا، بعض الشيء.

توقفت عن النظر إلى الميناء. نظرت إليه.

قالت له:

- بعض الشيء.

- كنـت متأكـدا من أنك لم ترحلي مع رجـل آخر وربما كان هذا الإحساس هو الأسـوأ في داخلي. كنت أتسكع في الشوارع الفارغة، الفارغة تماما، بعد الثانية صباحا. في العمل كنت أتدبر أمري لأني أعرف زبائني تمام المعرفة لكن هيأتي كانت تخونني. فصاحتي شيئا فشيئا لعبت ضدي لكثرة ما بكيت وشربت.

صححت:

- لشدة ما شربت.

ثم أنهت زجاجة الشراب التي طلبتها.

- لم يكن في اسـتطاعتهم طردي من العمل بسبب صعوبة في النطـق أو وجه متعب. أنا الذي رغبت في الذهاب إلى لندن كي لا أرى باريس. تفاوضنا. هذا كل شيء.

سألت حينها أن هايدن:

- هذا كل شيء. وفيري؟

أخذ، من جديد، يبحث عن التبريرات. نهضت. دخلت، ببطء، عبر الطريق المحاذية للبحر.



الفصل الحادي عشر

- فيري، لم آت منذ سن التاسعة.

اكتشف جورج بروتاني، مرة ثانية، بعد غياب قارَب الأربعين سنة.

- إنه مسقط رأسك.

كان مستغرقا في وضع ثيابه السوداء بعناية على الحجارة.

احتفظ بالتبان.

نزل إلى مواجهة الأمواج وهو يرتعش من البرد.

- هيا فيري! هيا آن!

تمتمت فيرونيك:

- إنها الحماقة. سيموت! لن أذهب.

- مرت أربعون سنة. إنها المرة الأخيرة، إليان!

- إنها حماقة، جورج!

- قد تكون حماقة، لكنك خوّافة بالنسبة إلى فتاة تحب الماء.

كان نحيفا بشكل مخيف. تقدم في الأمواج. ارتعش من البرد في الزبد الذي يتصاعد حوله في الريح. استدار نحو آن. ترجاها.

- هيا!

- «البرد شديد»، كررت فيري. أوقفا حماقتكما.

دفع مجهوده الأخرق آن إلى أن تنزع ثيابها هي الأخرى.

مد يده ليساعدها على النزول إلى الماء. كانا حقا في السادسة. قام بثلاث حركات. وخرج في الحال. سبحت لفترة

طويلــة، أطول ممــا كانت تتصور. لم يكن المــاء بالبرودة التي توقعتها.

***

أخذا حماما. وجدا فيري تنتظرهما في الصالون. تحدثت آن عن عشاء الأمس غير المفيد. قال له جورج:

- لو كان لكما طفل لظللتما معا.

أجابته:

- بلا شك.

قال فيري:

- أكثر ارتباطا.

قالت آن:

- أكثر تعاسة.

أصرت فيري:

- ربما لا. يغير الأطفالُ الرجالَ والنساءَ الذين يعتقدون أنهم يصنعونهم.

قال جورج:

- أكثر تآلفا في جميع الأحوال.

تمتمت آن:

- أكثر تبصرا.

همست فيري، بدورها:

- لكن هل هذا ممكن.

قال جورج:

- أقل عمقا، أقل كبرياء.

- بالتأكيد

***

لم تستطع الوقوف. ظلت جالسة، في الصف الأول، طوال كل المراسم الجنائزية. كان الكاهن يتلو جملا مجوفة وتدعو إلى السلام أثارت صدمَتَها.

ظلت مغمضة العينين.

مر طابور أول من التعازي، بعد المراسم، تحت كنة الكنيسة.

كانت والدتها قد طلبت أن تدفن على بعد أربعين كيلومترا من هنا، في مدفن والدتها، في قرية والدتها.

شمت رائحة التراب المقلوب الذي شكل كومة على حافة القبر المفتوح، قرب الحجر.

مرة أخرى موكب آخر. لكن أقل عددا.

كانت أرضا مسيجة في بروتاني تحيط بالقبة، تمر الطريق الوطنية بمحاذاتها.

كانت شاحنات الحليب والخضر تمر وهي تصدر ضجيجا كثيرا، تنقص من السرعة حين تقترب من المنعرج.

رمت التراب. كان الأمر يتعلق بموكب ثان من التعازي.

اقترب منها الكاهن. أراها بإشارة من يده سيارة فخمة توقفت على طول الطريق الوطنية.

أحد الأشخاص يُريد أن يكلمها.

سألت:

- من هو؟

لكنها فجأة خمنت من يكون. كانت على وشــك أن تسقط. لم تستدر.

قالت:

- لا أريد. أخبروه أني لا أريد.

***

لم تستطع أن تمنع نفسها من أن تستدير. لمحت الرجل العجوز الذي يتقدم نحوها مستندا على عصاه، وساقاه ترتعشان. أدارت له ظهرها، وأخذت تجري. غادرت المقبرة وهي تصرخ.

الجزء الرابع



الفصل الأول

كان قصيرا جدا. يتخطى التسعين سنة. رأسه شبيه بحبة بطاطس ذابلة. شعره أبيض، مسرح إلى الخلف، مدهون وقصير جدا، أشعث شيئا ما. عيناه شاحبتان. كان يتحدث بجفاف. لم يكن يرغب في الذهاب إلى القرية. لم يكن يرغب، من جديد، في رؤية المنزل على الشاطئ.

كان أحد الصيادين يبيع اللونغوست على الرصيف.

- تعالي، يا ابنتي، أحس بالجوع. أحب اللونغوست كثيرا.

دخلا مقهى غير بعيد من الصياد. كانت القاعة صاخبة. جلسا في أحد الأركان قرب البلياردو.

بدأ يتناول اللونغوست بشهية ظاهرة.

- لماذا لم تحتفظي باسمي؟

أصدرت حركة تعبر عن عجز.

قال متابعا، بسرعة:

- أتعلمين، بعض مقطوعاتك جميلة جدا.

كانت تبكي.

- بابا، لقد تساءلتُ، دوما، مع نفسي إن كنت قد شاركت في الحرب؟

أمسك كأسه. تجرع كل محتواها من شراب منطقة لُوَار.

- لا. كلهم كانوا معادين للسامية: الشيوعيون، المقاومون، الفاشيون، الملكيون. اختبأت. لم يكن في رأسي سوى فكرة واحدة، وهي الرحيل. الإفلات كان يعني الرحيل. كل حياتي كانت

هكذا. أنا هكذا. أفر دوما.

- أعرف.

- لماذا تقولين هذا؟

- لأنني دائما أفر. كما تفر أنت.

- نعم هربت. كنت أرغب في العيش لفترة أخرى. تتيح الموسيقى الحصول على لقمة عيش في كل مكان. توجد دائما مآتم وأعراس. أنا أمارس الموزاك[1]. أنت، تمارسين الموسيقى.

- ليس صحيحا!

- صحيح. لكن ذلك لا يهم إذا فكرنا في النتيجة النهائية. الموسيقيون مثلك أو مثلي يستطيعون تسول بعض القطع النقدية متقرفصين على أي جسر في العالم.

- هل أستطيع أخذ إحدى سجائرك؟

- نعم.

أخذ سيجارة لوكي. قال:

- . لم أتخلص قط من الاكتئاب إلا بأشياء نقوم بها كل يوم. في حياتي، وحده ملء الساعات بعمل متقن جعلني أطفو على السطح تقريبا. وعندما أقول ملء الوقت، أتباهى بعض الشيء. أواجه الوقت كل نصف ساعة!

- إذن أنا ابنتك، حقا.

- ستكونين حقا ابنتي لو كنت وحيدة كما كنت دوما.

وما الذي يجعلك تعتقد أني لست وحيدة كما تدعي أنك كنت؟ ماذا تعرف عني؟ لم تشأ، أبدا، أن تعرف شيئا.

«١» نوع من الموسيقى الأمريكية.

- لا تصرخي! أكره الصراخ!

- أفعل ما أشـــاء. أصرخ إن أردت ذلك. كان من المفروض أن تبقى. كنت تستطيع أن تبقى. كان عليك أن تبقى. على الأقل كان عليك أن تتصـــل. أن تتصرف مثل كل الناس. ألا تترك ماما من دون أخبار عنك. أن ترسل بطاقة في أعياد الميلاد! أو في أعياد الشكر! أو في روش هاشانا(٢)؟

- تتذكرين روش هاشانا؟

لزمت الصمت.

- أقصد أن تتصرف مثل الناس الطبيعيين.

- لا. لا. ما تقولينه غير صحيح. لم أعرف في حياتي أناســا طبيعيين، ابنتي.

- تقول كثيرا «ابنتي» لشخص لم تره قط.

بدأ من جديد:

- لا يوجد حب البتة. لا يوجد وجود طبيعي.

- هذا أستطيع أن أفهمه.

- ابنتي، لا يزال هناك العديد من الأشياء لتفهميها.

لكن أذنيها امتلأتا بالطنين. لم يتســرب شيء إلى داخلهما. علـــى الرغم من أنهـــا كانت كأنها تجتر ألما لم يظهر قط من قبل في أعماق جسدها.

سارا على الكثيب.

- أترين، أنا عجوز لكني أمشـــي. مشـــيت كثيرا، بشكل دائم. أحب المشي كثيرا كل يوم. عندما أمشي، تعود الذكريات القديمة.

«٢» عيد رأس السنة اليهودية.

لأني عشت قليلا من السعادة عندما كنت صغيرا.

- ليس أنا.

- كان لي جدان صامتان وجميلان. أنا أمشـــي لملاقاتهما بلا شك. سيكون الأمر صعبا أكثر فأكثر.

- مثلك، أتمشى كثيرا، صباح كل يوم، بشكل دائم.

- أمشي لكني نادرا ما أرى ما يحيط بي. أرى من دون توقف الأماكـــن المفقـــودة. أرى الثانوية. أرى قليـــلا خريطة الجغرافيا بالألوان، لكني أرى بالخصوص كوخي المرحاض الخشـــبيين في ساحة الاستراحة، ثقبيهما الخانقين. عندما كنا نصل، كنا نضع المعاطف قرب الموقد على مشـــجب من حديد. كانت هناك روائح المطر، الصوف المبتلة، الطبشـــورة، الغبار، الحبر، عرق الشـــبان الصغار. ماتوا كلهم، كل الذين كانوا في قســـمي. بحثت بواسطة الكمبيوتر. لهذا أنا هنا. نحـــن اثنان ظللنا على قيد الحياة. هو وأنـــا. نعم، يجب أن أخبـــرك: أنا هنا من أجله. لم آت من أجلك أنت، هل تفهمين!

- أفهم ذلك.

- لم أغادر ذلك الزمن أبدا. فررت لكني لم أغادر تلك الأرض المستحيلة. كنا نشتغل بالخمار.

- لم أولد أبدا إذن؟

- ولدت، لكني لم أســـتطع الاســـتمرار على قيد الحياة سواء عند ولادتك أو عند وفاة أخيك.

- توقف بابا. أظن أنك تؤذيني.

- سأتوقف إذن. ليس هذا ما أبحث عنه. ليلة سعيدة يا ابنتي.

هيا نذهب للنوم.

سألتُ بخجل:

- ألا ترغب حقا في النوم بالبيت؟

- لا. أكره ذلك المنزل. سأذهب إلى الفندق.

- ما هو الشيء الذي تبحث عنه؟

- أن أعلمك شيئا مفيدا الآن وهو أن والدتك ماتت.

***

في غرفته بالفندق:

- خلال المساء، في بروتاني، قرب البحر، كنت أدخل في وقت متأخر قدر الاستطاعة. زوجتي الكاثوليكية كانت دائما غاضبة. كنت تصرخين طوال الوقت. أخوك، المسكين الصغير، كان يصرخ في مهده، متوترا بسبب اليود. كان يمد يديه في كل ساعة من الليل لآخذه بين ذراعي. من سوء حظه كانت رائحته فظيعة وكنت موسيقيا كنت يهوديا لا أتحمل الصراخ. بالنسبة إليّ الصراخ كان هناك. هي الحرب. هذه المدينة البروتونية كانت صغيرة جدا، كاثوليكية جدا، محترسة جدا، فضولية جدا. لم يكن هناك أحد من أجلي. والدتك، أنت، أخوك الصغير، لم تكونوا قادرين على ملء الفراغ. كنتم أحياء جدا بمعنى ما.

- هل تعي ما تقوله؟

- أنا جد واع لما أقوله. الأسوأ هو أن أكذب. أن أتصرف كأنني قد رحلت من أجل تكوين ثروة في الولايات المتحدة، أو من أجل امرأة أخرى. صحيح أني أعيش في لوس أنجلس، وأني غني، وأني أمارس موزيك - موزاك - موزوك، وأني أستطيع

أن أتــزوج الآن وقــد رحلت والدتك، لكن فــي ذلك الوقت، كنت قــد خنت الأموات - افهميني، أتحدث عن الأموات الحقيقيين- لقد خنتهم، بشــكل فظيع، بزواجي من والدتك. لم يكن خطؤها. بواسطتها حصلت على الأوراق. كنت أعيش. أشعر بالدفء، آكل، أدرس الموســيقى، أواجه الريح على دراجتي، واضعا القبعة على عيني لأعطي دروســا في البيانو للبروتونيين، هنا وهناك. وكان الجميع يصرخ في وجهي.

- بابا، كان نيكولا رضيعا، وكنت طفلة.

- هو ذا. كان نيكولا رضيعا. وكنت طفلة. والدتك كانت زوجة مــن منطقة بروتاني ورعة، متباكية، ظريفة جدا، طباخة ماهرة، كاثوليكية جدا. هذه هي الحقيقة بالتحديد.

- وبعد؟

- لــم أكن أحتاج إلى رضيع، ولا إلــى طفلة، ولا إلى متباكية كاثوليكية، ولا إلى طباخة ماهرة.

-***

في الردهة:

- أترين، أعتقد أننا لا نملأ الفراغ بالشــكوى. أفهم أن تنهي كل مقطوعاتك بطريقة مباغتة.

سكتت.

- أتعلمــين. أنا معجب بك. إحدى صورك هي التي أبانت لي كل شيء. أشتري كل ما تنتجينه. أعجبت كثيرا بالشريط الثاني الذي سجلته.

- كان عليك أن تعلمني. أن ترسل إشارة.

- لا، لا ...

- توقف عن الكلام. دعني أبكِ بكاء شديدا.

- أترين، أنت فرنسية حقا! أنت فعلا ابنة أمك! أنت كاثوليكية فعلا! تبكين بكاء شديدا.

ضحكت.

***



الفصل الثاني

كان البحر لا يزال صاخبا، أخضر، وعنيفا. رجعوا في سيارة فيري الرباعية الدفع. في ساحة الصيدلية الخلفية قلبت الريح كل الكراسي ودفعتها نحو باب المرآب. تعشوا بسرعة (لياء باردة، سلطة جرجير). ثم اصطحبتهما فيري في السيارة.

ادعى جورج أنه لم يسبق أن رأى أمواجا بهذا الارتفاع تسقط على الرمل الأسود.

قالت فيري:

- لأنك بدون ذاكرة.

قالت آن:

- جورج يفقد ذاكرته شيئا فشيئا.

تخطت أمواج المحيط الدرج دفعة واحدة، وصلت إلى الحديقة. أحاطت بأقدام الأورطنسية. لحست طلاء واجهة المنزل.

وقفت آن، منتعلة حذاء عاليا، تتأمل البيت الواسع الذي عرضته، على الفور، للبيع عن طريق فيري. كيف استطاعت والدتها أن تتحمل طوال حياتها، وحيدة، كل هذه الغرف، كل عنف البحر والريح، كل هذه المهام المستحيلة؟

خلال هذا الوقت، في الولايات المتحدة، في مدينة لوس أنجلس، كان والدها ينتظر بهدوء وفاتها كي يتزوج ثانية.

في هذه الفيلا الكبيرة كانتا تعيستين جدا، ووحيدتين جدا.

***

اســتدارت مرة أخيرة لتتأمل صخب البحر عبر كتان ســتائر النوافذ المطرزة.

ستائر طرزتها والدتها واحدة واحدة في العزلة.

فتحت مصراعي النافذة.

اجتاح عويل البحر المدوي الصالون.

عاشت والدتها في هدير البحر المحيط الدائم طوال حياتها. حياتها كأمٍّ رحل طفلها الصغير. حياة المرأة التي هجرها زوجها. وما تبقى من حياتها بعيدة عن ابنتها.

راقبــت آن أقدام الأورطنســية في بقايا زبــد البحر، الدرج الكبير الذي يهبط بشكل دائري إلى البحر.

كانت أمواج الليل قد جعلت الدرج يلمع وهي تنسحب.

وكانت رمال الشط قد أصبحت بنية بلون ورق الشجر.

***

بعيــدا، أمام الفيلات على الكثيب، انكمشــت على نفســها، جمعت ركبتيها تحــت ذقنها، في الرائحــة المطاطية لجزمتها، وجلست وسط الرياح، على الرمل الذي بللته مياه المد.

لم يكن غناؤها يمّحي ســوى وهي جالسة - أو منكمشة - على شاطئ البحر.

كانت تســتطيع أن تمضي ساعات أمام الأمواج، في صخبها، غارقة في إيقاعها كما في الامتداد الرمادي، الصاخب والكبير. هنــا، لم تكن فقط تفقد غناءها بل حتــى ذكريات حياتها، حتى إحساسها بجسدها.

***

عادت صحبة جورج بالقطار.

في القطـــار الذي حملهما معا إلى باريـــس- مونبارناس (ثم فـــي القطار في محطة ليون الـــذي أعادهما، معا، إلى تييي) لم تستطع آن هيدن قراءة أي من المجلات التي اشترتها في المحطة.

كان جـــورج يقرأ رواية. أصابعه المزغبـــة كانت نحيفة وكأنها قوائم سرطان البحر.

***

وجدا صعوبة كبيرة في المشي في البورغون، أكثر مما عرفاه فـــي بروتاني. زرابي كبيرة من الأوراق الميتة كانت تغطي الأرض. تلتصق بأرصفة الشوارع وبالأحذية.

في نوفمبر تزحلقت آن على أوراق شجرة قسطل ضخمة والتوى كاحلها. لكـــن الرائحة التي كانت تنبعث منهـــا عندما كانت تخبئ رأسها فيها كانت أجمل من الرائحة النفاذة التي تنبعث من البحـــر.

ظلت تعرج لأيام في الرائحة الأخرى، الرائحة المسكرة، رائحة الأوراق التـــي تحترق في المواقد التي وضعت في الأركان الأربعة لرصيف الزيزفون.

ثم وجدا صعوبة في التعرف على بعضهما البعض في ضباب نهاية نوفمبر.

كانت قدمها قد تضررت وهي تســـقط حتى أنها لم تســـتطع الخروج عشـــرين يوما تقريبا. أبدى جـــورج العناية بها. قال لها ذات مساء إنها أجمل أيام يعيشها في هذا العالم منذ وفاة إريك. أمضت وقتها مستســـلمة للتدليل. لم تكـــن تتحدث كثيرا. كانت تمضي فترات بعد الزوال في صوت البيانو الهش.

لم يكن كروس يحب أحدا سـوى غلوك. كان يعزف كل شـيء كتبـه ولا يعزف غيره. كان يحوله إلى البيانو. كان يغنيه من دون توقف.

حياة حافلة بالإخلاص.

أصبحت حياتها تشبه حياة كروس.

كان جورج يأتي ليستمع إليها تشتغل. تلخص. على البيانو.

ثم، في السادسة، يشعل الموقد. وعندما يغلق عليه باب المطبخ ليهيئ أطباقه، تجلس قرب نار الموقد لتقرأ.

***

التوصل من دون مساعدة إلى إعادة الاتصال بالجسم الطاعن الدافئ،

الرائحة الرائعة،

الذراع التي تحمل، تمسك وتهدهد،

الصوت الذي يحسس بالأمان.

أريكة ضخمة يتكور فيها الجسم.

مدفأة كبيرة ذات قعر أسـود تصعد منه النار، مشـواة خبز، فواكه، أزهار، إناء كبير يحتوي نبتة خزامى، صيفا وشتاء، داخل المنزل لسحق أزهارها في بعض الأحيان، فجأة، كرسي ممتاز في زاوية النافذة لكن في مأمن من أشـعة الشمس الحارقة، مُدوَّرَة أسطُوانات.

***

توقف جورج، ممسـكا بمزيل السـدادات في يده. ظل يتأمل صديقتـه. كانت تبحث عـن إحدى المقطوعـات. تواجد وجهها

مباشــرة فوق المصباح. ذقنها، وجنتاها، كانت مضاءة. كانت ذات جمال باهر.

***

كانت مستغرقة في جيري بيندا.

في الماضي، سحرت ملهمة بيندا موزارت بشكل كامل.

***

الشـــيء الذي يصنع خصوصية مقطوعات آن هيدن يكمن في توقفهـــا المباغت. لم تكـــن لها نهايات. فقـــط صمت يباغت في أسوأ اللحظات، في اللحظات الأكثر ألما، في اللحظات التي ينتظر فيهـــا الجميع التتمـــة. في الماضي، في بغـــداد، عندما كان ظلام الليل يبدأ في الانقشـــاع، وتبدأ تباشير الصباح تلوح في الأفق، لم تكن شـــهرزاد تفضي بنهاية حكايتها، هذا كان التبرير الملغز الذي تقدمه عندما يؤاخذها أحد على المباغتة الملتصقة بمقطوعاتها.

***

كانـــت مؤلفاتها صعبة. لم يكن الجمهـــور العريض يهتم بما تقدمـــه. لكن كان هنـــاك المتعصبون. وكان هنـــاك ما يكفي من المتعصبين لكي تســـتطيع أن تعيش. كانوا يحســـون أنها تصيبهم في القلب. كانوا يكتبون لها الرسائل. وكانت في كل مرة تكتشف ذلـــك تصاب بالذهول. كانت تحس بالعرفان لكونها تمثل شـــيئا مهما بالنسبة إلى البعض. لكن سرعان ما كانت تنسى ذلك.

***

اشـــتد البرد في ديســـمبر. أشرقت شـــمس الخريف، صفار بيضة.

كانت السماء رائعة . بلون أزرق أكثر شحوبا مما كان عليه في إيطاليا .

كان الشتاء قادما إلى البورغون.

كانت الخطوات تسحق الأوراق الميتة الأخيرة التي تسقط حمراء ويتحول لونها إلى الأسود على الأرض. بدأ البخار الخفيف يخرج من أنوف الآدميين ويحوم حول أفواههم. والكلاب أيضا تبصق أنفاسها على الأرض. ضوء رمادي كان يبرز ظلالها ويلصقها بالأرض أكثر مما يفعل مع الآدميين الذين يمرون.

***

الفصل الثالث

فتحت الواجهة على الشـــرفة المملوءة بالصبــار. من مكانها كانت تــرى جزءا كبيرا مــن لوس أنجلس. كانــت آن هيدن قد رفضت حضور مراســم الــزواج الذي تم قبل اثني عشــر يوما تقريبا. أخبرت والدها أيضــا، حينما هاتفته من المطار، أنها لا ترغب في التعرف على المرأة الجديدة التي احتلت مكان والدتها.

أدخلتها شــابة في خدمة البيت إلى غرفة الاســتقبال. وصل أبوها العجوز، الضئيل بشعره الأشعث وهو يرتعش قليلا من دون أن يستعين بعصاه، حاملا زهرة أوركيديا بيضاء قدمها لها.

شكرته.

كان يبتسم بطريقة إرادية تقريبا.

وهي تمســك بين يديها بالأوركيديا التي قدمها لها أشار بيده ناحية البيانو الكبير ياماها الأسود.

- لكن لماذا؟

فتح ذراعيه.

همست:

- من أجل التوديع.

أشار برأسه.

كان يبدو أنه لا يستطيع الكلام.

كررت من دون أن تُصدِّق:

- هل من أجل أن يودعني، منذ الآن؟

أطلقت شــهقة. العواطف معدية. كان الأمر أقوى منها. بكت

لحظة وأنفها في الزهرة.

قالت:

- بابا!

كان محرجا.

وضعــت الزهرة على الأرضية. مباشــرة على الأرضية قرب الباب المنزلقة إلى غرفة الاستقبال. مستعدة للرحيل.

لم يقولا شيئا كثيرا.

ثم خلال الصمت سألت:

- بابا، لا أفهم. لماذا يجب ألا نرى بعضنا؟

قال:

- الأمــر صعــب التحمل. بالإضافة إلى كــون زوجتي حزينة بسبب رفضك إياها قبل أن تقبلي الالتقاء معها.

ثم تواعدا على ألاّ يلتقيا أبدا.

لم يشــرب حتى نصف كأس الشــراب المطبوخ الذي كان قد هيأه لنفسه.

قال لها وهو يشير إلى البيانو:

- اعزفي.

أجابته:

- ماذا لو عزفنا معا؟

- تغيرين النغمة؟

أجل.

- أنا أيضا.

- إنها موهبتنا.

- ميسائيل، كان الأمر نفسه.

- من كان ميسائيل؟

- هو ميشيل. والدي كان اسمه ميشيل. والدتي كانت تقول ميسييل. إنها الذكرى الوحيدة التي أحتفظ بها لها. أسمع من حين لآخر هذا الاسم يهمس في داخلي. هل يقال هذا بالفرنسية؟

- لا أعرف. ولا أهتم. نستطيع أن نشكل بأربع أيد إحدى ثلاثيات هايدن التي رأيتها على الخوان.

- فلنفعل.

أحضرت المقطوعة. فتحتها على الياماها. قرآ واقفين جنبا إلى جنب. جلسا جنبا إلى جنب على الكرسي أمام البيانو.

كانت ترتعش من الألم.

أغمضا عينيهما.

عزفا.

***



الفصل الرابع

تجمّـــد نهر اليـــون. كان البرد مرعبا. تمزقـــت مجاري الماء. غطـــى الصقيع كل مكان في الخارج. لم يكن الســـير ممكنا ولا الســـواقة في الأزقة. وحده الشـــارع التجاري والجسر كانا يذرو عليهمـــا الرمل كل يوم، لكن الســـقوط كان حتميا لكل من غامر بالسير عليهما. كان جورج يمضي أيامه في السرير الذي وضعه قرب المدفأة. شغل كل شيء إلى الحد الأقصى، السخان المشتغل بالغاز، جهاز التدفئة الكهربائي، المدفأة. ولم تكن درجة الحرارة تصـــل إلى أربع عشـــرة درجة. كانت الســـماء رمادية داكنة. كان الضوء رماديا داكنا.

عندما عاشت فيها فعلا، اتضح أن غرفة الطابق الأول في بيت اللبلاب، مناسبة بشكل كبير جدا للعمل. لم تكن ترى سوى الماء. لم تكن تســـمع سوى البط وصراخ الإوز الأجش. غرفة واضحة، شديدة البياض، يزينها سرير صغير أبيض، طاولة صغيرة بيضاء تضع عليها حاســـوبها، وتحتها آلة طباعة تســـتعملها لطباعة كل المقطوعات التي ترغب في اكتشـــافها أو إعـــادة قراءتها، طاولة ســـرير بيضاء، مـــن البلاســـتيك، بثلاثـــة أدراج، تغطيها الكتب والدفاتـــر، مملـــوءة بأقلام الرصاص، الممحـــاة، المقص، لفائف الشريط اللاصق.

اشتغلت كما لم تشتغل من قبل.

غالبا، ما كانت تؤلف. شيء بداخلها كان يصعد تهديه للوجنتين المدورتين لطفلة صغيرة كانت تود أن تستيقظ معها وتتحدث.

الغرفة في الأسفل كانت حافلة بالفوضى. المكتبات، مشغل الأقراص المدمجة، الوسائد، أواني الزهور الحية أو الميتة في كل الأركان، مرآة عتيقة كبيرة. بالكاد كانت تعيش هناك. بمجرد أن تنهي عملها في «المنزل الصغير»، في « komponier-hâuschen » الصغير جدا، كانت تلتحق بجورج في المنزل الكبير.

كانت تتردد على نحو مستمر على صالون بيت جورج لتعزف في ساعة الشاي.

لم تكن تعزف من أجلها. كانت تعزف من أجل جورج. كانت تعزف لتستريح من التأليف. لأنها أصبحت تؤلف أكثر فأكثر. عزفت ستة أشهر كروس على النهج الذي تصورت أن كروس يعزف بها غلوك. عزفت ستة أشهر شوبير كما عزف موزار شوبيرت. (عزفت ستة أشهر هايدن كما ظنت أن رادزينسكي عزف هايدن). كانت تتصور نفسها موسيقية من العهد القديم. كانت تعزف قاطعها من طرف ثلاثة أو أربعة أرستقراطيين حمقى. سوق الموسيقى العالمي كان وفيا بالإجماع للتنوع الجماعي، والقومي، والديني (كان جورج يقول: أغاني تتصنع الشعبية، والقومية، والدينية). يفضل محبو الوحدة، الملحدون، الحمقى، الموجودون على الضواحي، العصافير.

An die Musik ، للموسيقى.

An meine Klavier، للوحة مفاتيح البيانو.

كانت تمسك بين يديها حصاة سوداء مسطحة.

***

يقال إن اللوحة وفق اتساعها، شكلها، خداعها، جمالها، تنسج في آخر لحظة العنكبوت التي تناسبها.

الأعمال الإبداعية تخلق المؤلِّف الذي تحتاج إليه وتصنع البيوغرافيا اللائقة به.

***

كان دارسو الموسيقى يكتبون دراسات معقدة حول أعمالها القصيرة جدا وغير الثابتة. في الحقيقة، موسيقى آن هيدن كانت، ببساطة، موصومة بالألم .

كان ألما بسيطا للغاية.

الألم الذي لا يقبل العزاء والذي يصنع عمق النهار الذي نكتشفه.

خجولة، كانت تدور في حلقة مفرغة. دورة قصيرة في قعر فظ وهو يتذكر الظلّ.

كانت تتواجد في كل مكان بألحانها الفريدة.

كانت تنادي على الذين فقدتهم.

كانت عازفة البيانو ماجدلينا فون كورزبوك تقف بجانب هايدن خلال حفلته الموسيقية الأخيرة سنة ١٨٠٨.

نشرت آن هيدن سيمفونياتها، ثلاثياتها الرائعة التي لم تنشر ولم تعزف من قبل.

قد يكون هناك سبب لم يُشَرّ إليه من وراء اختيار هذا العمل.

لم يكن يبدو أن آن قد أحست به. كانت تقول:

- كانت ماجدلينا كورزبوك تحب أن تمرر هايدن. بدوري أحب تمرير الأشياء المنسية.

أعلنت آن أيضا لصحافية أمريكية:

في عالم النحل، تغير الشغالات وظيفتهن مع تقدمهن في السن. يكنّ منظفات خلال الأيام الأولى، ثم مرضعات، ثم صانعات صمغ خلال الفترة الثانية من حياتهن، وفي الأخير يجنين الرحيق إلى أن يمتن. وأنا أتقدم في السن أصبحت أهتم بالجني.

***

ألفت أناشيد تزايدت غرابتها أكثر فأكثر، أصبحت قصيرة، حافلة بلحظات صمت طويلة منسقة وموزونة تضفي نوعا من الوحشية إلى الحزن الذي يميز كل ما كانت تفعله.

كان هوجو وُولف يُدوّن، بذهول، على مقطوعاته، ساعة وتاريخ اليوم الذي تجلت فيه براعم الخلق. الساعة الثامنة، يوم الأحد الخامس من يونيو، في غرفتي.

الاثنين الثاني عشر، الواحدة والنصف زوالا، وأنا أتمشى في الغابة.

***

آن هيدن:

تتشكل الموسيقى بداخلي من دون آلة، وأنا واقفة تقريبا، الرأس مستقيم، في الفم المشدود، في كل فضاء الجسم العلوي. تنبعث الموسيقى من فوق الرأس مباشرة، مثل (الرعشة الجسدية). كل ما ألف أمام آلة، أو بواسطة آلة، أو تجاه آلة، يلبي ما يمكن أن يعطيه هذا على الآلة، يتجه صوبها، وهو ليس موسيقى. الجسد مقصى. كل شيء مجرد إنتاج للآلة. كل آلة

مضللة. حتى الصوت، إذا فكرنا فيه على هذا النسق، إذا صمم كنغم مغنى، يجذب صوبه، يُضلِّل.

***

بمجرد أن يتحسن الجو في الخارج، تخرج لتتمشى.

كان جورج يجدها في الصباح، وهو راجع من المخبزة متكئة على جدار الرصيف، مائلة إلى الأمام، غارقة في أفكارها، لا تزال مستغرقة في عمل الصباح، لا تلقي بالا لممارسي الهرولة الذين يمرون أمامها وهم يلهثون.

ولم تكن لتلحظ وجودهم، ساعة بعد ذلك، وهو يجرون، سمينين، تبعث روائحهم على الغثيان، حمرا، مبللين، منتشين، بشعين بشكل مخيف.

عندما كانت تعود عبر اليون، كان جورج يكتشف ذلك على البلاط لأنها كانت تبلل فيه حذاءها.

***

ينقل جورج الخشب. أو الرش. أو المطرقة. أو قضيبا حديديا. أو مسمارا. أو يتيه ومقص البستاني في يده.

كان قد أصبح لشدة نحافته أشبه بالجرادة. سقط شعره. أصبح يتحدث بطريقة بطيئة، ورقيقة، ومتلاشية، وضبابية بسبب الأدوية التي يأخذها.

- إليان، أود أن تقبلي مشاركتي بطريقة رسمية ومبرهنة آخر لحظات حياتي. شخصيا سأكون سعيدا جدا إن أصبحتِ في نظر الجميع أغلى شيء في حياتي. بعدها سأرحل.

- ادفع، جورج. شكرا جزيلا. أنت بخير. وأنا موجودة.

- إليان...

- توقف، جورج. افتح عينيك: أنا هنا. أنا فعلا هنا. أعيش هنا. أدفع ضرائبي هنا. نعيش جنبا إلى جنب. هكذا أفضل.

شرحت له:

- لا أريد أن آخذ شـيئا من أحد. لا أريد أن أنتظر شيئا من أحد. لا أريد الخضوع لأحد.

- أنت متعجرفة جدا. أنتِ لست لبقة. سأقول لك، يا آن...

- نعم.

- أنت لست لطيفة.

- صحيـح. أمضيت وقتك أنت وفيري في المدرسـة، عندما كنت صغيرة في توبيخي. والآن تخصص وقتك منذ ثلاث سنوات لتكرير ذلك ثانية.

***

في عمر الخمسـين كان يستطيع أن يغضب خلال ثلاثة أيام مثل طفل. عندها تصبح نظرته شـزراء، وفمه ملتويا، وحاجباه مقطبين.

***

يقال إنه في الاتحاد الوثيق يتبادل الجسمان الإعانة والغذاء. المساعدة والسهر في المقام الأول.

الغذاء ثانيا (الشيء الذي كان جورج سيضعه في المقدمة).

في الاتحاد الوثيق يسـتغل كل واحد الآخـر، بطريقة لا تُقاوَم، وفقـا لما يقدمه له. إذا حاول طرفٌ، بالمصادفة، أن يأخذ أكثر مما يأخذه الآخر فإنه يخنق شريكه. وإذا قام الآخر بتجويعه، فسيموت.

الاتحاد الوثيق لا يعني التوازن. هو صراع غير ثابت مثل الجو في سماء منطقة البورغون.

وحـــده البحث عن المســـاواة التي لا يمكن الحصـــول عليها، المستحيلة، التي تأتي، وتغيب، يجعله يعيش.

بـــدأت أفكارهما تلتقي في منتصف الطريق. ثم أخذت تلتقي أقصـــر من ذلك. مـــن النبرة. بل حتى قبلها: مـــن فتح الفم، من حركة الفم. من الضباب على شـــفاه الشـــتاء. من الرائحة. من القلق. من التنهد.

عاشا معا حتى لم يعودا محتاجين إلى الكلام.

لم تعد شـــابة. أصبحت الحياة تسري في داخلها في أعماق الجســـد. عندما تأتزر بعشر وشـــاحات كان وجهها يضيء مثل مصباح.

كان جورج يقول (كأن هذا أكثر وضوحا):

- شيء ما لا يُوهب وُهِب لهذه المرأة، وهو يضيء حياتي.

***

أتذكر أن آن كانت تقول لجوليا (عندما كانت تعيش معها ومع ماجدلينا في الفيلا الطويلة التي استأجرتها فوق البحر):

- عندمـــا نكون لا نزال أطفالا، تُصدِر كل قطعة من الجســـد الذي نحبه ضوءا. لا يَصدُر شـــيء عن العالم الشمســـي. الضوء يأتي من قلب الطفل.



الفصل الخامس

في ميلانو.

دفعـــت مرة أخرى باب المصعـــد الزجاجي المصنوع إطاره من خشب البيرنامبوك. كان باب الشقة مواربا. دفعت الدفة. أغلقت الباب. ظلت في الردهة، خجولة كما كانت وهي مراهقة.

كان الصالون فارغا؛ البيانو مغلق؛ والستائر مسدلة.

غادرت الغرفة.

وجدت الرجل المسن جالسا في غرفة الطعام. جالسا لا يفعل شـــيئا أمام المائدة الســـوداء. أدار وجهه ناحية الباب وتفحصها. أرعبتهـــا عيناه. كان يبدو كأنه أحمق. ثم تعرف عليها، واســـتنار الوجه العجوز. أراد أن ينهض.

صاحت، وهي تشرع نحوه:

- لا تتحرك! لا تتحرك!

عندما أصبحت بالقرب منه، مالت عليه، وأمسكت يديه.

ارتعشت شفتاه وصوته.

خاطبها(كان يتحدث بالإنجليزية):

- صغيرتي آن.

حاول أن يجعل صوته يتماسك، أن يسترجع صوته القديم:

- صغيرتي آن، إنك تغمرينني بالسعادة بقدومك لزيارتي.

نظـــرت حولها. كانـــت الغرفة لاتزال كما كانـــت. منخفضة، طويلة، قليلة الإنارة، وفارغة أكثر مما كانت عليه منذ خمســـين ســـنة. نادرا ما ســـمح لها بدخولها. العوارض كانت دوما داكنة،

وبارزة، ومضايقة. المدفأة فارغة ـ وفوقها الصليب الأسود.
لا توجد صورة أخرى. الصمت نفسه. العنف نفسه.

***

كان الجو رماديا وحارا. لمحت وهي تهبط من الطائرة على بعد بضعة أمتار راعيا ببلوزة صفراء يتكئ على عصاه، نظر إليها بلا مبالاة.

كانت ثلاث أو أربع عنزات ترعى في العشب الرمادي، غير بعيد من ساحة الهبوط.

مدت حقيبتها للسائق الذي كان قد اقترب منها مسرعا. قطعا، خلال ساعات وساعات، أحياء صفيح. وجدت نفسها في صالون رائع. ضابط الإيقاع الأسود كان لايزال يعزف على بيانو بلّيل العتيق الذي يعود إلى القرن التاسع عشر.

***

في أستراليا.

لم تكن ذاكرتها جيدة على المدى الطويل، لكنها ذاكرة متقدة في كل لحظة.

كان الأمر بسيطا، إذ لم تكد تتناول الشراب حتى تنسى كل شيء.

في المساء كانت تنسى كل شيء.

عندما كانت تعزف، عندما كانت تسجل، كانت تتوقف عن الشرب. كانت تعكس الفترات اليومية. عند حلول الليل كانت تظل في غرفتها تقرأ. لم تكن نوعية القطعة مهمة جوقة، رباعية، ثلاثية، أرغن، قصيدة جرمانية (بصوت واحد). كانت تتمتع بذاكرة قوية. ثم تعيد تركيب المقطوعة.

بعينين مفتوحتين أمام الحائط العاري (أو الذي نزعت منه الإطارات والصُّوَر والأطباع على الحرير) في غرفة الفندق أو المقصورة، كانت تتأمل الصُّوَر البانورامية في الفراغ.

كانت تهبط إلى قاعة الحفل، أو إلى الاستديو، بتأن، مركزة، ومستقيمة كي لا تفقد شيئا من تخيلها، وتتجه صوب البيانو. كانت تسجل على آلتي ستينواي مختلفتين - في الليل والنهار. ، عميقتين، ذواتي ملامس عميقة، ورائعة.

كانت جالسة، ترفع يديها، وتظل صامتة خلال فترة طويلة. وفجأة تبدأ في العزف.

كل التركيز الذي يتطلبه العمل يتم في مقصورتها. يكون التقنيون متأهبين، وينتظرون. تنزل. لا تقوم إلا بمحاولة واحدة.

***

في سيدني كانت تنام في شقة وارين. كانت تقول لوارين، مفسّرة:

- يبدو أن النوم يعطي قيادة الجسم لدماغنا الثالث الأكبر سنا. تفقد اليد اليمنى مهارتها ليلا. تصبح اليد المنكوبة أكثر مهارة. من مصلحة عازف البيانو، إذا كان مؤلفا، أن يسجل في الوقت الذي يفترض أن ينام فيه. تكون يده اليسرى متدفقة. في الوقت نفسه تفقد أصابع اليد اليمنى، التي كانت مسيطرة إلى هذه اللحظة، سيادتها.

قالت مرة أخرى لصحافي ياباني أتى يستجوبها:

- كان كلي، الرسام، يرغم نفسه على الرسم باليد اليسرى خلال النهار كي يكون غير ماهر، وطفوليا، وغير متوقع. أنا

أعزف في الفترة التي تكون فيها السيادة لليد اليسرى. في هذه الفترة تصبح المعزوفة حلما يمضي وفق إيقاع لا أسيطر عليه.

***

قبل كل حفلة موسيقية كان عليها الخضوع لحالة من الزهد تجعل حياتها مستحيلة. جعلت هذه الحالة تقتصر على التسجيلات التي أصبحت تجمعها وتقوم بها مرة كل سنتين. خلال شهرين، كانت ترفض كل دعوة إلى العشاء. تنام في العاشرة ليلا بالتحديد، وتنهض في الرابعة، لا تستسلم للنعاس ولا لأحلام اليقظة خلال النهار. كانت تسمي هذا الشيء «تحرير اليد اليسرى».

قال لها وارين:

- هذا الشيء يسميه السكان الأصليون هنا: موافاة زمن الحلم.

***

أخرجت المفتاح. دخلت إلى استديو التسجيل. كان فارغا. يعبق برائحة السجائر. كان قاطع التيار عاطلا. اضطروا إلى قطع التيار من العداد. مشت بحذر في الظلام وسط الوصلات والمحولات الكهربائية الموضوعة على الأرض. أمام الجدار في طرف القاعة، على المنصة، أمام قَدم الستينواي الثاني، وجدت حقيبة يدها (كانت حقيبتها عبارة عن كيس من المطاط الأسود). فتحتها. أخذت «حصاة لينا» الصغيرة. لم يكن سوى حجر أسود. أغلقت الحقيبة، وضعتها على كتفها، صعدت الدرج. مستعيدة هدوءها. مستعدة للانطلاق.

***

الفصل السادس

مرت سنتان. عادت إلى إيشيا لرؤية العجوز أماليا، كانت الأخيرة قد كتبت باستحياء تطلب منها المجيء.

ستموت وهي تضع يدها في يدها.

رأت فيلوسينو، إذن، من جديد.

نزلت في أحد فنادق سان أنجيلو على بعد ستة كيلومترات من ضيعة كافا سكورا.

لم تذهب إلى الجهة الأخرى لرؤية البيت الطويل ذي السقف الأزرق الذي شيد من أجل خالة صديقتها.

في أكتوبر يكون البحر بنفسجيا.

عندما يصبح البحر بنفسجيا، يختفي كل محبي الحياة.

***

في نوفمبر يصبح البحر أسمر. ترتفع الأمواج. تصبح الفيلات على البحر فارغة. تتدثر النتوء الصخرية والجزيرة بالضباب. يرتفع الدخان فوق أسقف المنازل في الوادي ويمتزج بالضباب. رحل أرماندو بدوره. ثم جوفيال سينيل. رحلت كروبوتكين.

- بقيت فلاحات، وبحارة، وفواكه.

ذهبت إلى الأوبرا في نابولي لحضور عرض لـ Paride ed Elena لغلوك.

Ah، che leggo كانت تردد في داخلها بلا نهاية.

كانت واقفة على درج مسرح سان كارلو في الليل.

أشعلت سيجارة. أرادت رمي عود الثقاب. لم تجرؤ. وضعت عود الثقاب بين الخنصر والبنصر.

أمسكت السيجارة بين السبابة والوسطى.

هبط الموسيقي ذو الرأس الشابة (برغم كونها صلعاء) درج الأوبرا بدوره.

نظر إلى آن هيدن متسمرة في مكانها، يغمرها الضوء، وهي تحرك عود الثقاب والسيجارة بيدها. تلعب بالسيجارة كأنها تعزف البيانو.

اقترب.

- أريد أن أسلم على ساحرتي.

- منقذي

قبّل كل منهما الآخر.

- هل عدت إلى الجزيرة؟

قالت آن:

- أنا موجودة فيها.

- هل رأيت ليونهاردت؟

- لا يعلم أني هنا.

حينها، أمسكت آن هيدن يدي شارل شينوني وسألته بطريقة محمومة:

- أين تعيش؟ هل رأيتها؟

- استقرت جولييت في مونريال، لا أعرف أكثر.

شددت قبضتها على ذراعه من دون أن تنبس بكلمة، ثم ابتعدت.

لم يفكـــر حتى في ســـؤالها إن كانت ترغب فـــي أن يوصلها بالسيارة. راقبها تختفي. لم تزدد ثرثرة مع التقدم في السن.

بحث عن سيارته في الأزقة.

***

- الرشاش عاطل!

كان جورج أمامها عاريا يغطي نفسه بالفوطة. كان تائها. نظر إلى آن يحذوه الأمل. نظر إليها كأنها أمهر مصلح مواســـير في العالم.

كرر، بصوت هامس:

- الرشّاش معطل.

قالت له:

- توجد أباريق في المطبخ.

ثم استطردت:

- أو أنبوب الري.

- نعم، سيكون أسرع.

أمســـكت الأنبوب. كان يصـــرخ بينما كانت ترشـــه بأقل قوة ممكنة.

***

وفـــي الأخير تبـــادلا الحب. لـــم يكن حبا جنســـيا. كان حبا حقيقيا. تحابا مثلما يمكن لطفلين في السادسة أن يتحابا.

الحـــب في نظر الأطفـــال هو أن تعتني بهـــم. تعتني بهم في النوم. وتطمئنهم عند الخوف. وتواسيهم عند البكاء. وتعتني بهم في المرض، وتلامس جلدهم، وتنظفه، وتمسحه، وتُلبسه.

أن نحب كما نحب الأطفال هو الإنقاذ من الموت.
اللاموت هو الغذاء.
وحول هذه النقطة الأخيرة أحبّها كما لم يحبّ أبداً من قبلُ.

***

عاود صلاته.

- نحن في نفس العمر، لنا نفس الماضي، تابعنا نفس الدراسة...

- ليس تماما.

- ... نفس الدراسة الابتدائية، إذا كنت تفضلين هذا الجواب. تعلمنا القراءة معا. تعلمنا الحساب معا. توصلنا بنتائجنا معا. كانت لنا نفس المدرسات.

- إذا كنت تظن أني لا أعرف إلى أين تريد أن تصل!

- ومع ذلك سأتابع. أذواقنا وإن لم تكن متشابهة فهي متقاربة، وِفاقُنا...

- ... كامل. حقا كامل، كامل من ربع الدورة منذ اللحظة التي تتوقف فيها عن الكلام.

- كلانا تركته والدته فيما تبقى من العالم، في هذا الحطام الجميل من العالم في السنة نفسها.

- صحيح أننا لم نحظ حقا بعائلة.

- كلانا بلا وريث.

- بدأ حديثك يأخذ منحى انحيازيا.

- إن فكر في أحد بعد موتي فسيكون أنت.

***

كان قد سافر خلال شهر مارس. على الأقل هذا ما أخبرها به عندما كانت في سيدني من أجل آخر تسجيل كانت تود القيام به. كان قد عاد من السفر أكثر تعبا. وضع أصبعه على شفتيها، ضم يديها. لم تعرف ما تقوله لكونها فوجئت من الحالة التي وجدته عليها. لم تشهد تحولا أسرع من هذا. لم ترغب في رؤية حدوث شيء من هذا القبيل. أمسكها من يدها وقال لها:

- لا تتكلمي.

كان قد استلقى على إحدى آرائك الصالون.

- لا تتكلمي، من فضلك. أرجوك، حاولي تصنع اللامبالاة. يجب أن أنزل كل أغراضي وأضعها هنا قرب السرير. يجب علينا أن ننظم الأشياء.

- طبعا.

- هل تريد أن تساعديني قليلا؟

هزت رأسها موافقة، عاجزة عن الكلام.

تابع:

- سنتزوج. كما أنك تهدين كل ما تؤلفين أو تكتبين للصغيرة، أحس أني محتاج إلى إهدائك كل شيء لأعيش قليلا. كي تكون نهايتي سعيدة. أنا محتاج إليك إليان. أنا محتاج إليك كي يمر كل شيء من دون ألم. انطلاقا من هذه اللحظة لن نتحدث عن هذا أبدا.

- الزواج لا...

- أرجوك. نحن لا نهتم بالكلمات، حب، زواج، ذوبان، اتحاد وثيق. حاجة الآخر إلى نفسه تفضي إلى مملكة لا تسري فيها

أي من هذه الكلمات. هل تقبلين؟

قبلت أخيرا.

اكتشــفت أخيرا أنه كان على حق. الرغبة التي يمتلكها الآخر في ذاته تخلق نظاما يملأ اختفاؤه بالألم.

***

الفصل السابع

كانت تحب الوصول إلى المطارات، في وقت مبكر، حتى تستطيع أن تتحرك، تشتري، تقرأ، تتأمل، تحلم في مأمن من أي خوف من التأخر. لم يكن ممكنا أن تفوّت «السفر». كانت تحب السفر. شيء ممتع أن نكون متأكدين من السفر. أغلقت باب كوخ الغامبوندورف. كانت السادسة صباحا. كانت السماء خالية من السحب. والنهار بالكاد بدأ يبزغ. بدأ الضباب يصعد على الماء. لن تحدث ضجيجا. لن توقظ جورج كما طلب منها.

ستتصل بتاكسي في تيلي ليوصلها إلى محطة القطار في سانس.

ستستقل أول قطار.

كانت تفضل الوصول إلى المطارات، باكرا.

كانت تقرأ مقطوعة وهي جالسة على الكرسي البارد في قاعة الانتظار، بدل تصفحها، بطريقة شاردة، وهي خاضعة للخوف من عدم وصولها في الوقت المناسب.

غادرت بيتها الصغير المغطى باللبلاب، اجتازت حديقة الورد، مشت في طرف الساحة الخضراء الأقل تعرضا للندى.

رأت عن بعد ضوء الصالون المضاء. أرغم نفسه على الاستيقاظ باكرا حتى لا يفوته ذهابها إلى نيويورك.

رأت وجهه عبر زجاج النافذة مائلا نحو الكتاب الذي يقرأه، مضاء بنور المصباح.

اقتربت.

طرقت النافذة بلطف. بدا مستغرقا في قراءة كتابه ولم يجب على إشــارتها. دخلت ووضعت حقيبتها في الردهة. دفعت باب الصالون. لم يرفع جورج رأسه.

اقتربت منه لتقبله وهي تسير على أطراف أصابع رجليها حتى لا توقظه. لكن جموده كان غريبا. وضعت يدها على جبينه. وجدته أبرد من قطعة الثلج. سقط الكتاب من بين يديه. التقطته وجلست بطريقة فجائية على الأرض وهي تمسك يدي صديقها اليابستين.

ظلت على هذه الحالة فترة ورأسها خاوية.

***

رافقتْ، في الشــارع، الشــرطي إلى ســيارة الدرك. عندما عــادت، كان باب المنــزل المجاور مفتوحا علــى مصراعيه. رأت رجلا نحيلا، شــعره أبيض، يرتدي رداء قطنيا مشــغولا بغرزات كبيرة، يحمل في يده مكنسة غبار صغيرة، يقف هناك.

تقدّمَ على الطريق المعبد.

- هل كل شيء على ما يرام؟

عندها أجهشت بالبكاء وأخبرته بأن جورج روهلينغر قد مات.

***

كان أنفها يســيل. ووجهها منتفخا. جلست على كرسي أبيض في مطبخ السيد دولور الرائع.

تنبعث رائحة قهوة. وخلف رائحة القهوة رائحة التبغ الهولندي. وخلف رائحة التبغ مزيج من رائحة جافيل والأنتميت.

كانــا ينظران إلى القهــوة تصعد في الإنــاء الزجاجي. رأت انعــكاس صورتها فــي كل مكان، على واجهــات الألمونيوم، على

مربعـــات الخزف الصيني الأبيض، على بـــاب الفرن الزجاجية. ولم تر طوال حياتها مطبخا بمثل هذه النظافة.

- هل أنت زوجته؟

- أجل.

- أنت وحيدة؟

لم تفهم سؤاله. كرر الرجل العجوز:

- أنت وحيدة؟

- ماذا تعني؟

- أنت من دون أطفال؟

- أجل.

- إذن أنت وحيدة.

صاحت، فجأة:

- تركت المنزل مفتوحا!

انطلقت بأسرع من الريح. لم تستقل الطائرة. لم تسافر. ســـاعدها الســـيد دولور فيما يخص الأوراق. لم تكن تتألم، لكنها كانت ضائعة.

***



الفصل الثامن

جعلت الشيخوخة والوحدة جسمها يبدو عظميا أكثر. أصبح جسمها متصلبا. أصبح شعرها أبيض تماما.

غيرت مـــرة أخرى طريقتها في اللبس. جذريا. بضربة عصا سحرية جاءت التتورات الكبيرة. كان يجب التخلص من سراويل الجينـــز الباهت، قمصـــان القطن الأبيض الرجاليـــة، جاكيتات جورج الجلدية.

الألبســـة القديمـــة الفاخرة، ســـترات من الحريـــر، قمصان شاحبة، سترات قطبية كبيرة رمادية وناعمة

تحتل الفضاء.

***

توجد متعة ليس في تحمل الوحدة ولكن في القدرة على ذلك.

.O Oh How I

تغني كاترين فيليب ثم تسكن.

ثم يبتعد، في الأخير، كلٌّ شيء، وتستريح.

ثم يصمت كل شيء.

رفعت آن هيدن عينيها نحو النافذة.

طلع النهار.

كل شيء أبيض.

– لم أعد أرى أرضية غرفتي. لم أعد أرى الأرض ولا الضفة. يبطئ الضباب في الانحسار. كل شيء يبدو فارغا. الأرض فقط مازالت تطلق رائحتها عندما نمشي عليها، عندما نحط أقدامنا

على العشب ووحل الضفة الذي يتهشم تحت الثلج.

مرت ساعة الزوال، بدأ الضباب في الانحسار، وبدأت تظهر الأسقف، وأعمدة الكهرباء، والقبب، ورؤوس البط البري الصغيرة.

تجتاح الشمس كل شيء دفعة واحدة.

تحضر غداء متقشفا (مفروم دواجن) وكأس شراب.

تصل الخادمة، وهي من جزيرة موريس.

ترتب آن المائدة. تصدم الصنبور المدور. تسقط قلادتها. ينفتح المشبك على حافة المغسلة.

تسقط سن صغيرة، تنهض بعد الارتطام من دون أن تحدث صوتا، تنزلق في ثقب المغسلة، تختفي.

سألت الخادمةُ:

- ما هذا الشيء؟ كان سنا؟

قالت آه هين، هامسة:

- لا، لا.

أغلقت الميدالية الفارغة. فرت إلى الحديقة.

غسلت الناقلة بأنبوب الري.

***

أضاءت الشمس الأرض الخضراء فجأة.

لمست الضفة.

برزت العظام خلف جلد الوجه.

يشبه وجهها وجه والدتها، قليلا. لكنه أنحف من وجه والدتها في العمر نفسه. كانت جميلة لمن لا يعرفها، لكن شيئا

مــن الصرامة والعنف ظهر على جبينها وفكها. في الخلف كانت تقف امرأة، مستعدة للوثوب، أكثر نحافة، أكثر جفافا من والدتها وجداتها وجدات جداتها مــن ناحية أمها. عندما تضحك كانت ضحكتهـا لذيذة لكن ذلك كان نادرا: الأســنان الكبيرة الضخمة الجميلة كانت تضيء كل شيء لكن بضوء بارد.

المعاناة، السباحة، الحب، الموسيقى، الجوع صنعت منها امرأة حادة.

كانت تخرج كثيرا. كانت قد اشترت شقة صغيرة قرب محطة ليـون. كان الجميع يراها فـي الحفلات الموسـيقية، يلاحظها الجميـع. تلبس دوما علـى الطريقة اليابانيـة، بماركات يوجي ياماموتو وإيسـي مياكو. كان الكل يحييهـا. وكانت تتأهب لبيع تويي.

حل الصيف. مسـاء. وقفت مائلة علـى ضفة اليون، في ظل الغومبندورف الذي اصفر طلاؤه وامتلأ بالشـقوق. كانت ترمي فتات الخبز للبط والإوز الذي يصل مسرعا في صمت إلى سطح المـاء الداكن. نبح كلب. فجأة تذكرت ماجدلينا رادنيتزكي. كانت ستكون في السادسة عشرة. ستظهر فجأة بشعرها المبلل، وثوب النوم القطني، ستصل جارية خلف ظهرها، وهي تصيح، وتقول...

فجأة دوى جرس ناحية الشمال.

وصلـت ناقلة مائية، جاءت من زمن آخر. هولنديون يشـقون قنوات البورغـون. مروا وهم يصرخون ويشـيرون بأيديهم إلى الجميع.

جلست ببطء على الدرج لرؤيتهم يمرون.

ماء البورغون المملوء بالوحل كان يضرب الرصيف والحلقات.
كانت تجلس في الشمس، مثل جوليا في الماضي، ساقاها متدليتان في ماء البحر الأبيض المتوسط الأزرق، مترا أسفل من المطعم. هنا، كان الماء أقل جمالا. الصيف أقل حرارة. لم تعد تملك الشجاعة للنهوض، للمشي، للجري، للانطلاق، للموت. هنا بدأت تحس بالخوف من الشمس. هناك، عندما كن معا، عندما كن يعشن معا ثلاثتهن، لم يكنّ يخشين الشمس أبدا، مستلقيات على كراسيهن الطويلة، يشربن، جميعا، الماء المثلج من القناني الزجاجية الكبيرة التي يغطيها البخار، على الشرفة، في أعلى الرابية.

المترجم في سطور

محمد محمد المزديوي

● من مواليد ١٩٦٤ - مدينة جرادة - وجدة - المغرب.
● حاصل على الشهادة الجامعية في الأدب العربي من جامعة فاس المغربية. والماجستير عن «إلياس خوري ناقدا»، وواصل دراسته في جامعة السوربون الجديدة، وأنجز أطروحته عن «ألف ليلة وليلة».
● اشتغل مراسلاً ثقافيا في عدد من الصحف.
● ترجم عددا من الكتب والروايات الفرنسية إلى اللغة العربية.
● ترجم العشرات من الكتب والروايات الفرنسية إلى اللغة العربية، من بينها «الأمير الصغير» لسانت إيكزوبيري، و«مقهى الشباب الضائع» لباتريك موديانو، و«احتمال جزيرة» لميشيل ويلبيك، و«مرّاعة» و«نجوم سيدي مومن» للماحي بينبين، و«المتمردة» لمليكة مقدّم.. وغيرهم.
● أصدر ثلاث مجموعات قصصية: «أحلام الهدهد» و«غرق القبيلة» و«صوداد».
● يقيم في باريس منذ ٢٤ سنة، وهو متفرغ الآن للكتابة والترجمة.

المراجعة في سطور

د. ليلى عثمان فضل

● من مواليد عام ١٩٥٠
● أنهت دراستها الجامعية عام ١٩٧٢، حاصلة بذلك على ليسانس في آداب اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس - كلية البنات - جمهورية مصر العربية.
● حازت درجة الدكتوراه عام ١٩٨٥، وكان موضوع أطروحتها «التجربة الإنسانية في الرواية الفرنسية نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.. مرحلتا الطفولة والمراهقة».
● عملت أستاذا للغة الفرنسية بجامعة الكويت.
● راجعت عدة أعمال لسلسلة «إبداعات عالمية» منها:
مختارات شعرية من السنغال - طام طام زنجي تأليف ليوبولد سيدار سنغور، رواية «عشيق الصين الشمالية» تأليف مارغريت دوراس.

إصدارات قادمة

الإحساس بالنهاية
(رواية)
تأليف: جوليان بارنز
ترجمة: د. خالد مسعود شقير
مراجعة: د. حسين علي الديحاني
ترجمت عن الإنجليزية

ما صدر من هذه السلسلة

318	نون والقلم	تأليف: جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف: تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف: جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف: ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف: ت. س. اليوت
323	قصص برازيلية	تأليف: مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف: رولان بارت
325	لون الماء	تأليف: جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف: أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف: اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف: مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف: بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف: بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار	تأليف: جونتر جراس
	الجرة المكسورة	تأليف: هاينرش فون كلايست
333	شمل تشابه ضائع	تأليف: أندريه شديد
334	حكايات الهنود الأمريكيين وأساطيرهم	تأليف: فلاديمير هلباتش
335	زهرة الصيف	تأليف: مجموعة من القاصين اليابانيين
336	طام - طام زنجي	تأليف: ليوبولد سيدار سنغور
337	اليبروح	تأليف: نيكولو ماكيافللي
338	منزل النور	تأليف: جوهر مراد
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف: تشنوا أشيبي
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف: أرتور شنيتسلر
341	غرام ميتيا	تأليف: إيفان بونين
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: فيمي أوسوفيسان
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: تنغ - هسنغ يي
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: إيريش كستنر
345	رسائل عيد الميلاد	تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر
348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيغو ديوب

ما صدر من هذه السلسلة

العدد	العنوان	المؤلف
	الأدغال والسهول العشبية تحكي	
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن	تأليف: هنري برونل
354	يتبعها فن الهايكو	
	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ -2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش ايريدينسكي أندچي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة: فروغ فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة



فيلا أماليا
(رواية)

نستعرض في هذا العدد للقارئ الكريم رواية من روائع الأدب الفرنسي وهي بعنوان «فيلا أماليا» للروائي والمترجم الفرنسي باسكال كينيارد (ولد في العام ١٩٤٨)، ويعد من روائيي فرنسا الكبار الأحياء، وقد حصل على جائزة «الغونكور» الفرنسية العريقة في العام ٢٠٠٢ .

تتناول هذه الرواية قصة سيدة موسيقية، آن هيدن، تقطن في الضاحية الباريسية، وعندما تكتشف خيانة رفيقها تقرر التخلي عن كل شيء أنجزته في حياتها، من منزل وصاحب وعمل، من أجل البحث عن حياة جديدة ترتكز على عشقها للموسيقى، الصديق الوفي الذي لا يخون، وعندما تذهب إلى جنوبي إيطاليا تلتقي بأحد أصدقاء طفولتها، لكنها سرعان ما تتركه - وإن كانت تعود إليه بين الحين والآخر - كما أنها هربت من بيتها في اتجاه جذورها وقدرها، وفي هذا البحث تعثر على جزيرة في إيطاليا، وهي المكان الذي توجد فيه فيلا أماليا.

وترسم الرواية الحياة المعاصرة، من خلال المشاكل التي تحدث بين الأزواج وفي العلاقات السريعة التي تسم عصرها، وتشكل طبيعته الغالبة، كما أن فيها عرضا رائعا لشخوص/ بورتريهات جميلة، وهذه الشخوص تكشف لنا بعضا من الطرق الكتابية عند باسكال، وقد دشنت روايتنا عودة الكاتب إلى فن السرد، وإلى الفن الروائي، كما فعل مع رواياته السابقة، لذلك يمكن القول إن هذه الرواية هي رواية جماهيرية.

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٧٥
ردمك: ٣-٣٥٨-٠-٩٩٩٠٦-٩٧٨